الدكتور أحمد زياد محبك

عصفور من الغرب

رواية

2011

رَأيــتُ خَيــالَ الظــلِّ أكبــرَ عبــرَة
لِمَــن كــانَ فــي عِلــمِ الحَقيقــةِ راقــي

شــخوصٌ وَأشــباحٌ تَمُــرَّ وَتَنقَضــي
سَــريعاً وَأشــكال بِغَيــر وفــاق

تَجيــئ وَتَمضــي تــارَةً بَعــدَ تــارَة
وَتَفنــى جَميعــاً وَالمحــرّك بــاقي

السهروردي 1191م

"العالم مسرح، وكل الرجال والنساء فيه ممثلون"
شكسبير **1616** م

"ما نحن إلا شخصيات افتراضية في فضاء رقمي"
محبك 2010 م

النيل مسافر من زمان زي الزمان
بين الجنادل تجرحه
لكن عارف مطرحه
وتسيل دموعه في الغيطان
ويلمّها ساعة الحصاد حزمة عيدان
النيل ده عمره
ممكن يطول بي السفر
ممكن يعوِّق سكته مليون حجر
ممكن يتوه ممكن يلفّ
المستحيل أنه يجفّ.

عبد الستار سليم

إلى
صديقي الروائي الكبير
محمد جبريل

كتبت بين

أوائل ديسمبر 2010 في القاهرة
وأواخر كانون الثاني 2011 في حلب

قبل ثورة الشعب العربي في مصر

الشخصيات

إدوارد: طبيب جراح من أكستر بإنكلترة يزور القاهرة.
فيث: زوجته، مختصة بعلم البحار، من ليفربول، تذهب إلى شرم الشيخ.
جبريل: شاب مصري، مجاز في اللغة الإنكليزية، يلتقي إدوارد، ويصاحبه فترة من الزمن.
الشامي: زائر من حلب، يتعرف على إدوارد، ويدعوه إلى زيارته في شقته بالقاهرة.
عوض: سائق سيارة أجرة، يتعرف عليه إدوارد عن طريق الشامي ويتعامل معه.
دليل سياحي.
سائق حافلة سياحية.
مارجريت: عضو في الفوج السياحي.
ديانا: عضو في الفوج السياحي.
كريستين: عضو في الفوج السياحي.

المكان
القاهرة

هنا ...في القاهرة لا يمكن أن تَمَلّ

إذا الشعب يوماً.....
أبو القاسم الشابي

هذا هو مساء الثلاثاء، اليوم الثاني من أيام إجازتي الخمسة عشر، وأنا في محطة الحافلات بميدان عبد المنعم رياض.

على المقعد الحديدي أنا هنا قاعد، منذ نحو نصف الساعة، المقعد من تحتي ساخن، والصهد يشتعل من الإسفلت الأسود، والسيارات في الشارع من ورائي تنفث دخانها مثل أفعوان، وسحج العجلات والأبواق والضجيج هو إيقاع مدينة الثلاثين مليوناً، وأنا في محطة "عبد المنعم رياض"، أنتظر الحافلة الصغيرة رقم 30، لتحملني إلى شارع "مكرم عبيد"، الحقيبة الجلدية أنزلها عن ظهري، أخرج زجاجة الماء البلاستيكية، أبلّ بها حلقي، الماء أصبح ساخناً، يحتاج إلى قليل من الشاي، وقليل من السكر، بل لا ضرورة هنا للسكر، لا بد من الإقلال من السعرات الحرارية، حافلات كثيرة تدخل إلى المحطة، يتراكض الناس إليها، يتعلقون بها، قبل أن تستقر في مواقفها المخصصة لها، يحشرون أجسادهم فيها حتى قبل أن ينزل منها ركابها المغادرون، لا بد من التزاحم، والتدافع، كيف لي أن أفعل مثلهم؟.

لا بد لي من تلبية دعوة ذلك الرجل الشامي القادم من حلب.

قال لي:"لا تأت بسيارة أجرة، ستكلفك كثيراً، الطريق طويلة، والزحام شديد، ستكلفك الرحلة خمسين جنيهاً، أو أكثر، تعال إلى زيارتي في الحافلة رقم 30، واطلب من السائق أن تنزل أمام محل عمر أفندي، اتصل بي بالهاتف الجوّال، قبيل وصولك، سأكون في انتظارك".

أكّد لي أن آتي إلى زيارته بالحافلة، لا بسيارة الأجرة، لا من أجل التوفير، ولكن من أجل متعة الرحلة، ومشاهدة القاهرة، والعيش مع الناس، ومشاركتهم معاناتهم، الحياة الحقيقية أن تعيش كما يعيش الناس، أكد لي أنها مغامرة، ولكنها ممتعة.

من فندق "غراند حياة" إلى محطة "عبد المنعم رياض" جئت بسيارة أجرة، كان من الممكن آتي سيراً على الأقدام، المسافة لا تبلغ ثلاثة كيلو مترات، بل هي أقل من ذلك.

ليلة أمس، الإثنين، مشيتها، بعد عودتنا من زيارة "المتحف الوطني" إلى الفندق عند الرابعة مساء، تناولت الغداء في الفندق مع أفراد الفوج السياحي، ثم نمت ساعتين، في السادسة والنصف تناولت كأس شاي في شرفة الفندق، وأنا في الدور الثاني عشر، أطل على النيل، ما كان يمكنني أن أبقى في الشرفة لأرقب النيل من فوق، لا بد من أن أنزل لأنضم إلى تلك الحشود التي أراها على جانبي الجسر الممتد فوقه، عند السابعة نزلت، مشيت من الفندق إلى جسر "قصر النيل"، وأنا أسير على الرصيف بمحاذاة النيل، إلى أن وصلت إلى الجسر، الأسدان الرابضان عند مدخله متألقان، لا يمكن إلا أن تقف أمامهما تتأملهما، مثل إلهين أسطوريين يحميان الجسر، وتتأمل الحشود على طرفي الجسر، وتستمتع بحركة السيارات وازدحامها الشديد، ثم تنخرط في الحشود، على الرغم من التعب الشديد والإرهاق، استنفدنا طاقتنا في التجوال في المتحف الوطني من التاسعة إلى الرابعة، ولكن سرعان ما يزول التعب كله عندما تستقبل بوجهك وصدرك النسيم السابح إليك من فوق النيل، مشبعاً بالرطوبة والندى والهمسات، وشمس الأصيل ترمي لونها الذهبي على الكون، فتتألق واجهات الفنادق الفخمة وتكتسي الأشرعة بلون الذهب، وتعلو وجوه الناس حمرة رائقة، والعشاق من حولك، صبايا في عمر الورود، مثنى مثنى، شاب وصبية، يخاصرها وتخاصره، يده على يدها، أو يده على كتفها، يتكئان معاً على سور الجسر، والموج من تحتهما يشدو لهما، وبائعة الورد

تطوف على العشاق، توزع الورود، وما من شاب يردها خائبة، وهل يعقل أن يبخل بثمن وردة من أجل صبية إلى جانبه يخاصرها، وهي تجود عليه بأنفاسها العطرة، وهو يدني فمه من أذنها يوشوش لها، والزوارق الصغيرة تسبح فوق النيل، أضواؤها المتلألئة تغرد وموسيقاها تترقرق مثل أفاويح العطور، كأنها نحلات تجمع الشذى وأجنحتها الملونة ترف، القاهرة لا تنام، والصبايا على الجسر مع العشاق، وتبدأ الشمس تنحدر نحو المغيب، وتلف الكون غلالة رقيقة شفافة، ويسبح الخيال، ومن خلال بقايا التعب تبدو الألوان والأشخاص والسفن أطيافاً من رؤى، وأنت أيتها الزوجة المؤمنة، فيث، هل تغوصين مثلي في لجة البحر؟ تتأملين الشعب المرجانية والأسماك الملوّنة مثلي في هذا المغيب الجميل؟.

لا أعرف هل هو خطئي أم هل هو خطؤك؟ لقد احترمتُ رأيك وقدّرتُ رغبتك في الذهاب إلى "شرم الشيخ"، وأنا هنا وحدي على الجسر مع القاهرة، وهناك عند آخر الجسر أرى سيدة تقف على طرف الجسر، تدير ظهرها للناس، تستند بيديها إلى السور الحديدي البارد، تميل بوجهها نحو موجات النهر الهادئ، آلمتني وقفتها كثيراً، ولست أوفر منها حظاً، وأنا أرى الشباب والصبايا مثنى مثنى، كنت وحدي، كنت بحاجة إليك، فيث.

في الحقيقة لست متعباً اليوم كالأمس، ولكن أشعر بالملل. هذا اليوم، الثلاثاء، لم يكن حافلاً، زيارة قلعة صلاح الدين والمتحف الحربي مملّة، لا بأس، زيارة الجامع كانت ممتعة، في العاشرة صباحاً كنا، نحن أعضاء الفوج السياحي، أمام باب القلعة، لم تستغرق الزيارة سوى ساعتين ونصف الساعة، في الواحدة وصلنا راجعين إلى الفندق، دعوة الرجل الشامي لي لزيارته اليوم مناسبة جداً، أستطيع بها ملء فراغي، هي خير من الجولة الحرة.

أمس، الإثنين، وهو اليوم الأول، تعبنا جداً جميعاً من زيارة المتحف الوطني، زيارته علمية، مفيدة، وجو المتحف مكيّف، ولكن الزحام فيه شديد، ولا بد من الجولات السريعة، الدليل السياحي لا يترك لك فرصة للتأمل، وكل

الوجـوه مـن حولـك أوربيـة، سـائحون وسـائحات، أنـا أود أن أرى الوجـوه المصرية، وليس في الفوج السياحي من هو مهتم بالآثار، ولا فن النحت ولا التصوير، كم أود لو أزور المتحف وحدي، لا بد من زيارته مرة ثانية، لا بد من أن تنضم فيث إلينا ولو في الأيام الثلاثة الأخيرة من الإجازة، عندئذ سنزور معاً "المتحف الوطني" مرة أخرى، وسنقف طويلاً أمام مومياء "توت عنخ أمون"، يا إلهي، هذا هو الإنسان في قوته وعظمته وجبروته، مسودّ الجلد، متفحم، متيبّس، الناس ينظرون إليه مدهوشين، وهو راقد في قفصه الزجاجي، عيونهم تفترسه، تتأمله، تريد أن تحدِّق فيه، أن تبصره، يود أحدهم لو يدنو منه ويلمسه، هاهو ذا بعد أربعة آلاف سنة يغدو مجرد جثة يتأملها الناس، وينسون أنهم أمام فرعون، كان يخرج على الناس بزينته، حليه وقلائده وأساوره البهية هاهي ذي إلى جواره، في غرفة أخرى خاصة، حتى نعله الذي ينتعله من ذهب، وفي أصابعه أنامل من ذهب، العرش الذي يقعد عليه من ذهب، الكرسي الذي يضع قدميه عليه من ذهب، عصاه من ذهب، صولجانه من ذهب، القناع الذي غُطِّيَ به وجهه وهو ميت من ذهب، لم يكن أحد يستطيع من الناس ولا من الكهنة أن ينظروا إليه، وهو يطلّ عليهم، وإلا عشيت أبصارهم من لمعان الذهب، لا شك أنهم كانوا يسجدون بين يديه، ويغضّون أبصارهم، وهم الآن يفتحون أبصارهم ليروا جثته السوداء المتفحّمة، العجائز الثلاث يثرثرن:"جنون، ماهذا الاهتمام بالجسد؟"، "نحن ظهر عندنا في أوربة منذ منتصف القرن التاسع عشر جنون التجميد، كثير من الناس يدفعون ألوف الدولارات لحفظ أجسادهم بعد الموت في ثلاجات يضخ فيها النتروجين، على أمل اكتشاف دواء يعيد إليهم الحياة"، "ولا تنسَيْ كيف بدأنا نحرص جميعاً بعد سن الخمسين على الرياضة ونظام الغذاء كي نحفظ هذا الجسد"، "ونجري عمليات استبدال القلب والكلية وزرع الرئة"، "لا يا كريستين، هذا أمر آخر، هذا لتجديد الجسد في الحياة، وليس بعد الموت، هذا لحفظ الحياة"، ويسمع الدليل هذا الحوار، فيعلّق:"حَفِظَ المصريون القدماء الجسد لأنهم كانوا يعتقدون

أن الروح ستعود إليه بعد الموت، ولا بد من العناية به، لأنه سينهض بعد الدفن، ويمضي إلى العالم الآخر، وحتى الآن لم يُعرف سرّ المواد التي كان المصريون القدماء يستعملونها لحفظ الجسد، في القرن العشرين حاول الإنسان حفظ الجسد، لكنه لم ينجح، في الاتحاد السوفييتي سابقاً أمر ستالين بتحنيط جسد لينين بعد موته عام 1928، من بعده حُنِّط جسد ستالين نفسه، وحُنِّط جسد صن ياتصن وهو شي منه وماوتسي تونغ وغيرهم، كل أشكال التحنيط فشلت، وما تزال الأجساد المحنطة تُعالج بالمواد الكيماوية، حتى لا تفسد، وتُحقن وتُمسح وتُطلى بالشمع، يُقال إن الأجساد المعروضة ليست هي نفسها أجسادهم، بل تستبدل بين حين وآخر بأجساد موتى، ثم سارعوا إلى دفن ستالين، واليوم يحارون في أمر جسد لينين، لأن الاستمرار في معالجة جثته يكلفهم الكثير"، وتسأل مارجريت:"وهل يتوقعون عودتهم إلى الحياة؟"، يردّ الدليل:"يريدون أن يحفظوا الهيبة لقادتهم وليضمنوا استمرار أفكارهم"، وتعلق ديانا:"نحن الأنجلوسكسون، نقدم الآن القداس للميت، ثم نحرقه مع التابوت، ونحتفظ برماده"، وتضيف كريستين:"وفي الهند تحرق جثث الموتى"، سئمت من الأسئلة والتعليقات وضجرت، ولينين توفي عام 1924، وليس عام 1928، من التاسعة حتى الرابعة، والجولة السريعة في المتحف لم تنتهِ، لا شك في أن هناك أجنحة في المتحف لم نزرها، أو زرناها ومررنا بها سريعاً، ولم نتأملها، أنا لم أعد أستطيع التركيز، كنت أرى التماثيل واللُّقى والتحف والأشياء وكأنني في حلم، بل كأنني في لجة البحر، كأنني مع فيث أغطس في البحر، وأرى الأشياء من وراء الموج، وقد بدأ الأوكسجين في الأسطوانة فوق ظهري بالنفاد وبدأت الرؤية أمام عيني تضعف، وكأنني أوشك على الاختناق، ركبتاي ضعفتا، ولكن أكثر ما لفت انتباهي قطع النرد ورقعة تشبه الشطرنج، هل عرف المصريون قبل أربعة آلاف عام لعبة الشطرنج والطاولة أو ما يشبههما؟ وتلك التصاوير الملونة على الجدران وعلى البُردي كيف لم يزل

عنها لونها وعمرها أربعة آلاف سنة، أشد ما ضايقني وأزعجني تعليقات النسوة العجائز الثلاث.

مع ذلك، زيارة "المتحف الوطني" أمس أجمل من زيارة المتحف الحربي اليوم، زيارة اليوم متعبة وخانقة، قصر من أيام محمد علي باشا، جرى تحويله إلى متحف لآلات وقطع حربية كلّها مستوردة، مشتراة بالمال، هي من صناعتنا في إنكلترة أو أمريكا، ومن الاتحاد السوفييتي، لا تمثّل مصر، والقصر مغلق، يتألف من ثلاثة أركان، إذا دخلته فلا بد من أن تطوف بأرجائه الثلاثة لتخرج منه، وإذا أردت الخروج فلا منفذ، عليك أن ترى كل شيء، أو تمر به بسرعة، والقسم الأخير هو عن المراحل الأخيرة من تاريخ مصر، ثورة عبد الناصر، وحرب عام 1967 ثم حرب عام 1973، وحرب اليمن، وحرب الخليج، وأخيراً صور القتلى مع أعدادهم في كل حرب ممن يسمونهم هنا الشهداء تملأ الجدران في قاعة متواضعة جداً.

ولكن لا يمكن أن أنسى جامع محمد على باشا، هو فخم حقيقة، يشبه جامع آيا صوفيا في أسطنبول، وإن كان أصغر منه، لو كنت معي، فيث، لاسترجعنا ذكرى زيارتنا أسطنبول في العام الماضي، الإطلالة على القاهرة القديمة من باحة الجامع رائعة جداً، هنا أتمنى حقيقة لو كنتِ معي، لكنا رأينا معاً القاهرة القديمة، كم هي دافئة وحنون، البيوت متلاصقة، الجدران واطئة، الشوارع والأزقة شرايين تغذّي البيوت بالحياة، ومن بعيد لاحت لنا مآذن الأزهر، لم أتبيَّنْه بشكل جيد، الدليل وعد بزيارته وزيارة خان الخليلي والحسين غداً، ولكن الفوج السياحي طلب تأجيل زيارته إلى اليوم الأخير، لشراء التحف والهدايا من خان الخليلي، وطلب الفوج أن يكون يوم غدٍ استراحة، أو جولة حرة، أنا قد أزوره يوم غد، لن أنتظر إلى اليوم الأخير، لا أبالي بالتحف ولا الهدايا، القاهرة هي الأزهر والحسين، ولا يمكن أن أنسى اليوم الرجل الذي رأيته في جامع محمد علي وهو يدعو ربّه، رأيت من قبل كثيراً من المسلمين وهم يصلّون، يميلون نحو الأرض، يضعون أيديهم على ركبهم ويحنون

ظهورهم، أو يضعون جبهاتهم على الأرض مباشرة، وهم شبه ملتصقين بها، هذا أمر عادي بالنسبة إليّ، ولكن اليوم أرى رجلاً في السبعين، أبيض اللحية، مشرق الوجه، وهو جالس على الأرض، يرفع يديه بموازاة صدره نحو السماء، ويدعو ربه، والدموع تتحدّر من عينيه على لحيته البيضاء، وقفت أتأمله، هذا هو التواصل الرائع بين الأرض والسماء، بين الإنسان وخالقه، وأطلب من الدليل أن يسأله الدعاء لنا، فيرفع يديه إلى أعلى، ويدعو بصوت متهدّج، وتزداد الدموع تحدّراً على لحيته البيضاء، وأسأل الدليل ماذا قال في دعائه، فيقول: "يدعو الله أن يحفظ الناس كلهم ويعمّ الأرض كلها السلام".

يا إلهي؟! كم وددت يا "فيث" لو كنت معنا، كنتِ ركعتِ إلى جانبه وصلّيتِ، أنتِ مؤمنة، ولا تتأخّرين عن زيارة الكنيسة، أنا لا أكاد أزورها إلا قليلاً، أنت تنفرين من الرمل والصحراء، وتحبّين البحر، أنت ابنة ليفربول، تحبين الأمواج والمياه والأسماك والأنهار والبحار، وتجيدين الغطس، وتتخصصين في دراسة الشعب المرجانية، لا أعرف كيف تزوجتِ ابن راع من أكستر مثلي يعشق الأرض والتراب والشمس والهواء، ويهوى الخراف والمراعي؟ ويجيء هو إلى القاهرة وتذهبين أنت إلى شرم الشيخ؟ الدليل ذكي جداً، سألني بعد خروجنا من الجامع:"هل تعرف العربية؟"، لم أجب، فأضاف:"رأيتك تتأمل الآيات القرآنية على الجدران، وتلتفت أحياناً نحو صوت بالعربية يأتيك من منادٍ أو بائع، أظنك تعرف العربية؟!"، ابتسمت، ولم أجب، الحقيقة أمضيت أربعة أشهر قبل زيارة القاهرة وأنا أتعلم العربية في أحد المعاهد، وكنت أستمع في الأشهر الأربعة الماضية كثيراً أنا وزوجتي إلى أم كلثوم وإلى القرآن، وقرأت عدة كتب عن مصر، وهذا كتاب الدليل بين يدي لا يمكن أن أتركه، العام الماضي، قبل زيارتي أسطنبول قرأت خمسة كتب عن أسطنبول وتركيا، وحاولت تعلم اللغة التركية، وجدت ألفاظاً كثيرة من اللغة التركية في اللغة العربية، الأرجح أن تكون هذه الألفاظ التركية من أصل عربي.

أوه، هذه هي الحافلة الصغيرة، وهذا هو الرقم 30 يتصدرها، كأنها العروس تضع على صدرها وردة، عليّ أن أنهض، الناس يندفعون نحوها، أجد نفسي مندفعاً معهم نحوها.

أنا الآن في داخل الحافلة، أقف مع الواقفين، فوراً امتلأت الحافلة، وازدحمت، بل غُصَّت، مقاعدُها لا تتسع لأكثر من عشرين، لها باب واحد من أمام للصعود والنزول، وعلى الطرف الأيمن منها صف من المقاعد المفردة، وعلى الطرف الأيسر صف من المقاعد المزدوجة، وفي العمق، صف من المقاعد على عرضها، يملأ المؤخرة، الحافلة امتلأت، حتى الممر بين المقاعد امتلأ بالواقفين، السائق ذو الشعر الأسود المصبوغ ينزل من الحافلة، يذهب إلى غرفة إسمنتية صغيرة على الرصيف، يقف هناك أمام نافذة صغيرة مفتوحة، يستند إلى حافتها، في داخل الغرفة رجل مهمته مراقبة حركة الحافلات وتنظيمها، السائق يطل على هذا الرجل من النافذة، يتناول منه كأس شاي، يأخذ باحتساء الشاي ببطء وهدوء وعلى مهل، وهو يمازح الرجل، ويضاحكه، ظهره للحافلة، غير مبال بها، كأنه نسيها، قميصه مبلل بالعرق، نحن هنا في الحافلة نتصبّب عرقاً، الجو ساخن جداً، النوافذ مفتوحة، واللهب يتدفق منها إلى الداخل، الركاب بين قاعد وواقف مستسلمون لقدرهم، لا أحد يتذمر، لا أحد يتكلم، كل منهم يمسح العرق عن جبينه بصمت، شاب يمسك بيده اليمنى كتيباً صغيراً يقرّبه من عينيه يقرأ فيه، ويتعلق بيده اليسرى بقضيب معدني في سقف الحافلة، أظن الكتاب الصغير الذي في يده هو المصحف، لأنه يقرأ وهو يتمتم، رجل كهل يفتح جريدة ويقرأ فيها، يصعد إلى الحافلة رجل بدين، يده اليمنى مقطوعة، بيسراه يحمل صندوقاً صغيراً، فيه ولاعات صغيرة، صوته أجش خشن، يحشر جسمه بين الأجساد وهو يعرض بضاعته على الناس، مَنْ سيشتري ولاعة في هذا الحر القاتل؟ سيدة بدينة أيضاً تصعد إلى الحافلة، تحشر جسمها بين الأجساد، تحمل وريقة، هي وصفة طبية، تسأل الناس أن يساعدوها، تريد شراء دواء هي عاجزة عن دفع

ثمنه، الوقت يمر، لا أحد يفكر بالنزول إلى السائق ودعوته لينطلق بالحافلة، لا أحد يفكر بمناداته، لو ظل في مكانه ثلاث ساعات فيما يبدو لما ناداه أحد، كنت أتوقع أن ينزل أحد الشباب ويجذبه من قميصه ويدعوه إلى الانطلاق بالحافلة، أو أن يعبر أحد الشباب عن غضبه ولو بكلمة من داخل الحافلة، ولكن لا أحد يفعل، كلٌّ مطمئن إلى المقعد الذي احتله، أو مرتاح إلى الموضع الذي وقف فيه من الحافلة، أو فرح لأن الحافلة وصلت أخيراً واستطاع أن يصعد إليها، ويأتي أخيراً السائق، يحشر جسده الضخم بين الأجساد، بطنه ممتدة إلى أمام مثل كرة كأنه امرأة حبلى، عنقه غليظة، شعره المصبوغ بالأسود يلفت النظر، وجهه متغضن، لعله فوق الستين، يجمع الأجرة، يوزع التذاكر، أوه، الأجرة زهيدة جداً جداً، من "غراند حياة" إلى المحطة دفعت عشرين جنيهاً، أي أربعة دولارات، هي كثيرة، أو ليست كثيرة، لا أعرف بالضبط، لكنها بالنسبة إليّ ليست كثيرة، هنا في الحافلة لم أدفع سوى جنيه ونصف الجنيه، أي أنني دفعت جزءاً من خمسة أجزاء من الدولار، وتتحرك الحافلة، تنزل المرأة المتسولة وينزل الرجل بائع الولاعات، تنطلق الحافلة، الهواء يتدفق من النوافذ، لا بأس، ولكنه حار محمّل بدخان السيارات.

شاب من عمق الحافلة، في المقعد الأخير منها، عند النافذة اليمنى يشير إليَّ بيده، وينهض، يناديني بإنكليزية محببة، يُخلي لي موضعه، أشكره وأقعد.

لو كانت زوجتي الآن معي لضحكت، ولو أخبرتها بذلك لضحكت أكثر، قرأنا معاً في كتاب الدليل السياحي عن عادات المصريين، في الحافلة ينهض الشاب للمرأة وللشيخ العجوز، يخلي لهما المقعد، هذا يعني أني شيخ عجوز، لا بأس عليّ أن أقبل بذلك، ولكن لعله نهض لأجلي لأنه رآني أجنبياً، لا بأس أنا أجنبي وعجوزٌ أيضاً.

صدق ذلك الرجل الشامي، هي تجربة ممتعة، ولكنها كئيبة، الساعة الآن الثالثة، وصلنا إلى الفندق من زيارة قلعة صلاح الدين والجامع عند الواحدة، أخذت حماماً بالماء البارد، وتناولت كأس شاي، ثم خرجت من الفندق في

الثانية والربع، وصلت خلال عشر دقائق، انتظرت إذن نحو نصف الساعة، ترى هل أصل إليه في الرابعة؟ لا بأس، هو وقت مناسب لتناول الغداء، كان لا بد من قبول دعوته، عرضت عليه أن أزوره لتناول فنجان قهوة، ولكنه أبى إلا أن تكون الزيارة لتناول الغداء.

قبل خروجي من الفندق دخلت إلى موقع الخريطة الرقمية، عبر الشابكة، بحثت عن الطريق من "غراند حياة" إلى "مكرم عبيد"، الطريق يستغرق نصف ساعة بسيارة الأجرة نظرياً، يمر بشارع الجمهورية، ميدان رمسيس، الدمرداش، غمرة، العباسية، امتداد رمسيس، الأوتوستراد والمنصة حيث اغتيل السادات، أوه، هي رحلة ضرورية إذن، سأمر بالمنصة، وأرى أمامها قبر السادات، بعد ذلك تدخل الحافلة في شارع مصطفى النحاس، تمر بجامع رابعة العدوية، ثم تمر بأول شارع عباس العقاد، ثم تدخل في شارع مكرم عبيد، في نهايته يقع محل "عمر أفندي" وبجواره "السراج مول"، كل شيء واضح في الخريطة الرقمية، حتى الشوارع والسيارت والعمارات، لا يمكن أن أضيع، وواضح أيضاً أنها رحلة طويلة، عشرة كيلو مترات، لا بل أقل.

سامحك الله، أيها الرجل الشامي، لو كنت في سيارة أجرة لما عانيت من هذا الحر وهذا الزحام، وهاهي ذي أسماء المواقع كلها قد سجلتها في هذا الدفتر الصغير، ولا بد بعد ذلك من جرعة أخرى من الماء، ولو كان ساخناً مثل الشاي.

وتدخل الحافلة في شارع الجمهورية، وتأخذ الحافلة بالانزلاق في الطوفان، تمشي الهوينى، لا تزيد سرعتها عن العشرين، أنت في طوفان من السيارات الكبيرة والصغيرة والعامة والخاصة، وعبر النوافذ المفتوحة تملأ رئتيك بدخان العوادم من احتراق غير كامل للبنزين والمازوت، وتستمتع شئت أم أبيت بالضجيج والزمامير والأبواق، وأنت في المقعد الأخير من الحافلة، والناس أمامك معلقون من أيديهم بقضيب حديدي في سقف الحافلة، تماماً مثل

محل كوّاء يعلق معاطف وقمصاناً في قضيب حديدي، لم يأت أصحابها من شهور ليأخذوها، هي متراصة متراكمة بعضها فوق بعض.

عندما قلت للرجل الشامي سآتيك في الثالثة، قال: "لا تقيّد نفسك بموعد محدد، هنا لا يمكن أن تتقيد بموعد، قل سآتيك بعد الثالثة، وعندئذ تصل وقت تشاء"، صدق الرجل، لا أعرف متى سأصل، هذا إذا وصلت.

وأنا في الحافلة أرى الناس من خلال النافذة على الأرصفة ينظرون إلى الحافلة كما ينظر طفل يتيم جائع منذ شهر إلى قطعة حلوى فخمة جداً وكبيرة جداً وشهية جداً في يد إقطاعي، تتمهل الحافلة مضطرة، بسبب الزحام، يسرع إليها عشرة أو عشرون، يتشبث بها أربعة أو خمسة، يتعلقون بالباب، ثلاثة أو أربعة أجسادهم خارج الحافلة، أيديهم فقط معلقة بها، وكعوب أحذيتهم لا تكاد تجد لها مكاناً في الباب تقف عليه، وتتوقف الحافلة كارهة، لأن أحد الركاب يريد النزول، كان قد صعد إليها بصعوبة قبل دقائق، رفض أن يدفع جنيهاً ونصف، هناك حافلة مشابهة أجرتها جنيه واحد، لا يريد أن يدفع في هذه الحافلة نصف جنيه زيادة، وهذه الحافلة مثل تلك في السرعة والازدحام، لكنها من شركة نقل أخرى.

وتتابع الحافلة الانطلاق والناس يتعلقون بها، وكأنها المغناطيس، ولكن ترى العيون على الأرصفة تنظر إلى الحافلة نظرة عجب وانبهار، أكثرهم يحدق في العجلة الخلفية، وتحسّ بميل الحافلة نحو الجهة اليمنى، حيث أنا، وتسمع صوت حديد يسحج العجلة أو يسحج الإسفلت لا تعرف، وتشم رائحة اشتعال، عيون الناس على الأرصفة تنظر بدهشة واستغراب إلى الحافلة، لا شك أنها ستنقلب، أتشبث بمقبض المقعد الذي أمامي.

هنيئاً لك يا فيث، أنت هناك في شرم الشيخ تغطسين في المياه، تتحركين بحرية، بدفعة هادئة من قدمك تنسابين برشاقة داخل البحر الواسع العريض البعيد العميق، البحر كله لك وحدك، لا زحام ولا عرق ولا روائح ولا دخان عوادم ولا ضجيج، ولا حرّ، بل تنعمين بالنداوة والطراوة والبلل، آه، ما أجمل

الماء، والأسماك الصغيرة من حولك تسبح، والشعاب المرجانية أمامك لوحات موسيقا ونغم، وأنا أمامي الأجساد متراصة خانقة، ومن حولي الأبنية المرتفعة من أشكال وألوان وأنماط مختلفة، بناء من عهد الملك، وبناء حديث، بناء أصفر، بناء أبيض، بناء مسودّ متفحّم من دخان العوادم، بناء مهجور، أو كالمهجور، أنا أيضاً أمام شعاب مرجانية خلابة.

ويعلو صوت من داخل العربة:"تعالوا إلى الجهة اليسرى هنا، العربة مالت إلى اليمين"، وهل ثمة جهة؟ اتحدت الجهات، حقاً هنا في الجهة اليمنى سيدة بدينة جداً، فجأة أراها أمامي، كيف صعدت؟ كيف حشرت جسمها في الزحام؟ لا أعرف؟ حبذا لو جاءت إلى الجهة الأخرى، لو أنها نزلت، وأهم بالنهوض لتقعد في محلي، ولكن ينهض رجل ليس بالشاب، بل هو في الخمسين، يُخلي لها مقعده، يقول لها: "تفضلي سيّدتي".

الناس هنا حقيقة متحابّون، متعاونون، لا يتذمّرون من راكب جديد يصعد إلى الحافلة، يحشر نفسه بين الأجساد، لا أحد يتذمر، بل إن الراكب الجديد يحشر نفسه، ويمضي إلى عمق الحافلة، ليسد الثغرات، وليفسح مجالاً لراكب آخر، ثم يناول أحد الركاب جنيهاً ونصف الجنيه، ويتم تناقل هذا المبلغ الزهيد من يد إلى يد، من عمق الحافلة ليصل إلى السائق، هو أجرة الركوب، ثم تتناقل الأيدي أيضاً تذكرة صغيرة، لتصل إلى يد الراكب الجديد، الأمانة والصدق والوفاء هي سمة هؤلاء الناس المتعبين، لا أحد منهم يركب من غير أن يدفع، كل راكب حريص على أن يدفع أجرة الركوب.

الوجوه متعبة، علامات الإرهاق واضحة، الذقون غير حليقة منذ أيام، الأجسام بدينة بدينة، ويرن هاتف جوال هنا وهناك، ولا بد من أن تسمع كلاماً طويلاً وبصوت عال، يمكن أن يسمعه معظم ركاب الحافلة، ومن الممكن فهم موضوع الاتصال الهاتفي، الناس هنا متعلقون جداً بالهاتف الجوال، لا تكاد يد تخلو منه.

من داخل الحافلة يمكنك أن تستمتع بمرأى نهر السيارات يسيل الهوينى وهو يتدفق على طول الشارع، سيارات سيارات سيارات سيارات، سيارات فارهة، نوافذها مغلقة، التكييف في داخلها يصنع الجو المكيف والمعقم والمعطر، وصاحبها وراء المقود في قميص فاخر، يستمتع بزحام السيارات من حوله، يستمتع مثلك بالزحام، وهو ماض وحده في سيارته، ويمكنك أن تستمتع بسحر سيارته، وبتألق زجاج نوافذها المغلقة، وتشاركه شعوره بالنعيم وإحساسه بالبرودة في داخل سيارته، وأنت تواكبه طوال ساعة أو ساعتين، مثله مثلك، أو مثلك مثله، فالوقت عندكما يمر الهوينى، وفي النهاية، تجد نفسك قد وصلت إلى مقصدك، بعد ساعة ونصف، أو بعد ساعتين، تنزل من الحافلة وأنت مسرور جداً، رحلة ممتعة، أنت هنا، كما يبدو لي، لا يمكن أن تمل أبداً، ففي كل يوم يمكن أن تمضي ثلاث ساعات من عمرك، بكل بساطة، أو أربع ساعات، بين الذهاب والإياب، هي مجرد نزهة ممتعة، وهل في الحياة ما هو أجمل من أن تنغمس في الحياة وتعيشها وتضيع في الزحام وتشعر أنك واحد من هؤلاء؟.

هكذا يبدو لي الناس هنا في الحافلة، يظهرون هادئين وادعين مستسلمين لقدرهم، بل يظهرون مسرورين لأن كل واحد منهم حصل على موطئ قدم له في الحافلة، أو حتى في بابها، وهو في النهاية سيصل، ما من مشكلة، بعد ساعة أو ساعتين، فهو مسرور.

آه، لو كنت صاحب قرار في هذا البلد، لمنعت السيارات الخاصة من النزول إلى وسط المدينة، من حق كل مواطن أن يكون عنده سيارة، هذا حق، ولا شك فيه، ولكن ليس من حق كل مواطن أن يذهب وحده بسيارته الخاصة إلى عمله، ويهدر الوقت والمال والطاقة ويصنع هذا الزحام، الحل في حافلات النقل العام، فهي توفر الوقت والمال، ولكن يبدو للسيارة قيمة اجتماعية هنا، لعلهم يعدونها من مظاهر الغنى والرقي ومن دواعي الفخر والاعتزاز، ولا سيما السيارة الكبيرة، نحن نعتبر السيارة أمراً عادياً، بل نضيق ذرعاً بها

وبمصروفها، أنا لا أذهب إلى المستشفى بسيارتي، بل أذهب بالحافلة، فهي أوفر وأسرع وآمن وأوقاتها منتظمة، لست أنا وحدي من يفعل ذلك، بل أكثر الناس في أكستر، نحن نترك السيارة للنزهة خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع، رأيت هنا المترو والجسور والأنفاق، ولكن هذا كله غير كاف، لا بد من البحث عن حل آخر يتعلق بالسيارات الخاصة، هو حلم إنساني، يراود كل فرد منا، لو أصبحت ملكاً ليوم واحد لغيرت العالم كله، ولكن يبدو لي أنه لو أصبح كل واحد ملكاً العمر كله لا ليوم واحد لما استطاع أن يغيّر شيئاً، بل لعل المشكلة كل المشكلة في أن يصبح الفرد ملكاً العمر كله.

في ميدان رمسيس لا بد أن تقف الحافلة عند الإشارة، الإشارة حمراء، وتصبح خضراء، وتتحرك الحافلة، وقبل أن تصل إلي الإشارة، تصبح حمراء وخضراء عدة مرات، حشود هائلة من البشر على الرصيفين، تروح وتجيء، الأرصفة محاطة بحواجز من قضبان حديدية عالية، أعلى من متر، تحول بين الرصيف والشارع، وفي نقطة العبور لقطع الشارع يقف على الطرفين رجال الشرطة، وثمة حاجز حديدي يحول دون عبور المشاة، الحاجز لايمكن لسيارة أن تقتحمه، وهو للمشاة، يسد عليهم الرصيف، يعلو متراً، وهو على عجلات، تصبح الإشارة حمراء للسيارات، فيدفع الشرطي الحاجز الحديدي، فينزلق على قضبان، ويفتح المعبر، فينطلق المشاة حشوداً يعبرون الشارع، ومع ذلك يقفز بعض الشبان من فوق الحاجز ليعبروا الشارع.

على يساري شيخ عجوز، لحيته بيضاء طويلة، يتمتم بآيات قرآنية، يسأل الله على ما يبدو أن يحمي الحافلة من الانقلاب، يلتفت إلى شاب بجواره، يقول له:

ـ خسارة رفعهم تمثال رمسيس من هذه الساحة، كانت تحمل اسمه، وبه تعرف، كان زينة لها، يضفي عليها البهاء والعظمة، كل شيء تغيّر.

حقيقة، رأيت عدة صور لتمثال رمسيس في كتاب الدليل السياحي، موقعه كان يضفي على الساحة العظمة.

مرتين أوثلاث مرات تصبح الإشارات خضراء، وأخيراً نجتاز إشارة المرور، وتنطلق الحافلة.

هذه حافلة كهربائية (ترمواي) قديمة جداً فيما يبدو، تتهادى ببطء أيضاً، وتتمايل، عرباتها الثلاث مفتوحة النوافذ، وهي مكتظة أيضاً، لا بد أن أجد بعض الوقت، وأجرب الركوب فيها، وإن كنت لا أعرف إلى أين ستسير بي.

الناس هنا ليل نهار في الشارع، على الأرصفة، في مواقف الحافلات، في المقاهي، كأنهم دائماً في إجازة، المحلات تغص بالناس، المطاعم المقاهي الحافلات، حيثما التفت تجد الزحام، حقاً هي مدينة الثلاثين مليوناً، وما أكثر السائحين والسائحات، وكم يعجبني أولئك الرجال الطوال الممشوقي القوام، ترى في بنيتهم الجسدية القوة، رؤوسهم مرفوعة، صدورهم مشدودة، يمشون بسرعة، حركاتهم رشيقة، لا بدانة في أجسادهم، يلبسون جلابيات أكمامها عريضة جداً، وفتحة العنق واسعة، خمّنت أنهم ليسوا من أبناء القاهرة، سألت عنهم فقيل لي هم الصعايدة، هم من الصعيد، أكد لي الخادم في الفندق أنهم أصحاب نبل وشهامة وصدق وشرف.

أكثر النساء متحجبات، ولكن الحجاب لا يغطّي الوجه، نساء كثيرات رأيتهن يعملن في المحلات، ولا سيما محلات بيع الألبسة، وأحياناً في محلات بيع الأطعمة، حتى في المتحف كان هناك صبايا يعملن دليلات سياحيات، يختلطن بالرجال ويقدن الأفواج السياحية وهن مسلمات محجبات، يتقنّ اللغة الإنكليزية والفرنسية والألمانية، رأيت شابة تقود فوجاً من الصينيين، تحدثهم باللغة الصينية، تشرح لهم، وهي محجبة، كنت أظن المرأة المسلمة مغطاة بالأسود من رأسها إلى قدمها، لا ترى وجهها ولا عينيها، كنت أظنها قعيدة في البيت لا تغادره، أرى الآن من خلال نافذة الحافلة صبايا أيضاً من غير حجاب، وأنا في محطة الحافلات أنتظر الحافلة رأيت صبية من غير حجاب، وهي تضع في عنقها قلادة ذهبية، على شكل مصحف صغير، لا شك أنها

مسلمة، يبدو الحجاب غير ملزم، حقيقة الرحلة في الحافلة ممتعة، يمكن من خلالها أن ترى أكثر.

لم ينزل أحد من الركاب، ولكن لا أعرف كيف صعد إليها ثلاثة أو أربعة، حشروا أنفسهم بين الأجساد، مثل مسافر حاجاته كثيرة، وليس عنده سوى حقيبة واحدة، وعليه أن يحشوها كلها في الحقيبة، إلى أن تتمزق وتنفجر، الحافلة تجتاز الدمرداش، تمر بغمرة، الناس على الرصيف ينظرون إلى الحافلة مدهوشين، هي حقيقة مائلة، مائلة على الجانب الأيمن إلى حد كبير، أسمع سحج الحديد على الإسفلت، أشم رائحة العجلات وكأنها تشتعل، رائحة العجلات تطغى على رائحة الأجساد المتعرقة.

الحافلة تميل، وأنا على الطرف الذي ستنقلب عليه، ستكون ذراعي اليمنى أسفل مني، الزجاج المحطم يملأ وجهي، تدخل الشظايا في جبيني، عظام يدي اليمنى تتهشم، لا بد من بتر الذراع، وأكوام الأجساد فوقي، هذا الرجل العجوز سينقلب فوقي، لا، لن يحطم هو أضلاعي، سأحميه بجسمي من الزجاج المهشم، ياللعجوز المسكين، سأختنق، سأختنق.

فيث، أين أنت؟ ليتك معي، لاشك في أن الشعاب المرجانية والأسماك جميلة ومتنوعة ولا شك في أن الغطس في البحر ممتع، ولكن الغوص هنا في هذه الحافلة، على الرغم من كل شيء، أمتع وأجمل، تعالي يافيث لتري الناس والحياة هنا، كم هي غنية وخصبة ومتنوعة، لا مجال للمقارنة، كم هو جميل أن يختلط الإنسان بناس لا يعرفهم ولا يعرف لغتهم، أن يحتك بهم، أن يرى وجوهاً جديدة، ويشاهد عادات جديدة، ويعيش مشكلات، ويسمع أصواتاً جديدة، تعبر عن مشاعر وعواطف ومفاهيم، يكاد يحس بها، يكاد يفهمها، من النبرة من الإشارة من حركة اليدين من نظرة العينين يشارك بها الآخرين، يدرك أنه مشترك معهم في الحس والوجدان والشعور، وإن اختلفت اللغة، أو اختلف اللون والشكل، يلتقط سمعي بعض الكلمات العربية، أفهمها، أدرك أحياناً المعنى العام، ولكن سرعة النطق تغلق فوراً أبواب الفهم، هنا أناسٌ

سمر، أناس بيض، أناس شقر، وآخرون سود، حتى السواد درجات، ولكنهم كلهم مصريون، وكلهم في النهاية بشر، الكل سواء، كلهم كانوا بويضة واحدة مرت بقناة فالوب، ياللتنوع والغنى والخصب، ليس عالم البحار وحده المتنوع، عالم البشر متنوع أيضاً، بل هو أغنى وأكثر تنوعاً، لن أدعك، فيث، لتمضي الإجازة كلها وحدك هناك في البحر، لا يمكن أن تمضي خمسة عشر يوماً وحدك، ولا يمكن أن أمضيها هنا وحدي، لا بد أن أدعوك غداً، أو بعد غد، أوبعد يومين هنا إلى القاهرة، لتعيشي معي تجربة الغوص هنا في حياة البشر، فهي هنا أجمل.

أعين الناس على الرصيف وهم ينظرون إلى العجلة الأخيرة في الطرف الأيمن من الحافلة هي التي تضاعف من ذعري.

الناس متعلقون بالقضيب الحديدي في سقف الحافلة، هادئون مطمئنون مستسلمون، كأن الحافلة تسير على وساد من حرير.

الحافلة تصعد جسراً، آه، هنا لابد من أن تنقلب، سنطير من فوق الجسر، تنزل الحافلة بهدوء، تغرق في البحر، تغوص أمام الشعب المرجانية، زوجتي تطل عليَّ من النافذة، بعض الأسماك تتسرَّب إلينا، يزداد الزحام، أختنق، أخرج من النافذة، أعوم مع زوجتي.

نصل إلى العباسية، ثمة موقف للحافلات، الحافلة تهدئ من سرعتها، ينزل منها راكبان، ينحشر في داخلها أربعة، يتعلق في الباب منها ثلاثة، وهي تميل وتميل، أمامنا بحر من السيارات، سيارات سيارات سيارات سيارات سيارات سيارات سيارات سيارات، موج هادئ في بحيرة ساكنة، السيارات تحت الحر تشتعل، الحديد يصيح يزمجر، العوادم تنفث لهبها في غضب، الناس المحشورون في الحافلة هادئون سعداء لأن الحافلة ستصل بهم بعد ساعة أو ساعتين إلى حيث يقصدون، الصمت والهدوء والصبر الطويل هو المسيطر، لا الجسور ولا الأنفاق ولا الشوارع العريضة ولا إلغاء الأرصفة يحل المشكلة، الرضا والقبول والتسليم هو الخلاص، ما أجمل النقاء والصفاء

والتسليم، حتى هذا الميل الكبير في الحافلة جميل، بل هو ممتع، الناس في الحافلة يحسون به، وهم به راضون، وأنا معهم، أنا مثلهم.

ثمة حافلة ركاب كبيرة إلى جانبنا، سائق حافلتنا العجوز يمد يده من النافذة، يشير لسائق الحافلة الكبيرة، يوقف هذا حافلته، ويفسح المجال لسائق حافلتنا، فيدخل أمامه، برضاه ومن غير أن يحشر حافلتنا أمامه حشراً، ويستطيع بعد ذلك المرور مع رتل من السيارات.

حقيقة الصبر هو الحل، والتسامح هو الحل.

الحافلة تعاود انطلاقها، يأتيها الدور فتعبر، وتمشي، بسرعة عشرين أو أربعين، وتصعد جسراً آخر، تهبط منه في امتداد رمسيس، يتسع الشارع ويقل الازدحام، وتسرع الحافلة، لعلها الآن تسير بسرعة سبعين، الميلان فيها على الطرف الأيمن يزيد، سحج الحديد على الإسفلت واضح، رائحة احتراق يخالط رائحة العرق والأنفاس.

الشاب الذي تخلى عن مكانه لي يقف أمامي، أقول له:

ـ الحافلة مائلة، تكاد تنقلب.

ـ اطمئن، الأمر عادي.

إذا لم أخطئ فهذا المدرّج المسقوف هنا على الطرف الأيمن هو المنصة التي اغتيل عليها السادات، وهاهنا قبره في الطرف المقابل تحت هرم مفرغ، أو ما يشبه الهرم، وهاهو زحام السيارات يعود، لا داعي للقلق، أصبحت واحداً من هؤلاء، والرجل الشامي في شقته ينتظر، لا مشكلة، كم الناس هنا طيبون!.

هذا هو مسجد رابعة العدوية، تماماً كما رأيته في الخريطة الرقمية على الشابكة، الحافلة عند الموقف الخاص بالحافلات تخفف من سرعتها، أو بالأحرى تزيد من بطئها، فينزل أربعة ركاب، أو خمسة، وينحشر فيها ثمانية، وتميل أكثر.

لا شك في أننا اقتربنا من مكرم عبيد، يجب أن أتصل بالرجل الشامي، ليكون في انتظاري، وأفتح الهاتف الجوال، يا إلهي، نفد منه الشحن، ولا ضوء، ولا إشارة، ما الحل؟ كيف سأتدبر أمري؟ من الممكن أن أنزل أمام محل "عمر أفندي" كما أوصاني، ولكن كيف سأهتدي إلى شقته؟ وكيف سأراه؟ في أسوأ الأحوال أعود في الحافلة نفسها إلى مركز انطلاق الحافلات في "عبد المنعم رياض"، لن أتيه ولن أضيع، أو أرجع في سيارة أجرة إلى الفندق مباشرة، ولكن الرجل ينتظرني؟ لاشك في أنه الآن يحاول الاتصال بي؟

الشاب الذي أخلى مقعده لي يرى اضطرابي، يسألني:

ـ هل تريد المساعدة؟

ـ الهاتف الجوال نفد شحنه.

ويستل جواله من جيب قميصه، يناولني إياه.

ـ تفضل جوالي، اتصل به، حتى إلى إنكلترة إذا شئت.

ـ لا، هو اتصال هنا بصديق، هو اتصال في القاهرة، في مكرم عبيد.

ـ اتصل كما تشاء.

ـ ولكن الرقم في الجوال، ولا أعرفه.

الشاب يصمت، يتردد، ثم يقول:

ـ ما من مشكلة، هات شريحة جوالك، سأضعها في جوالي، ثم اتصل بمن تشاء.

وأتصل بالرجل الشامي:

ـ أنا إدوارد، صديقك الذي التقيته في المطار، نفد شحن جوالي، وأنا أتصل من جوال شاب كريم، أنا حالياً اجتزت رابعة العدوية، وأظن أنني أصبحت قريباً من عباس العقاد.

ـ ستصل بعد نصف الساعة إلى محل "عمر أفندي"، سأكون في انتظارك، اسأل أي راكب عن محل "التوحيد والنور"، عندما تصل إليه هيّئْ

نفسك للنزول من الحافلة، اطلب من السائق أن تنزل أمام محل "عمر أفندي"، اطمئن ستجدني في انتظارك على الرصيف.

الساعة الآن الرابعة، مرت ساعة كاملة على انطلاق الحافلة في الثالثة، من مركز "عبد المنعم رياض"، لا أظن أني سأصل بعد نصف ساعة.

أشكر الشاب على لطفه وكرمه، أحاول إخراج الشريحة، لأعيد إليه جواله، يقول لي:

ـ احتفظ بالجوال، اتركه هدية معك من مصر، ويسرني أن تقبله.

أشكره، وأنا أعتذر إليه، يلحّ على موقفه، أقول له:

ـ لا بأس، ولكن على شرط أن تأخذ جوالي بدلاً منه.

يبتسم، يشعر بالخجل، يعتذر بأدب وهو يقول:

ـ لا، شكراً لك، جوالك حديث ومتطور جداً، جوالي أنا قديم، أنا أعتذر إليك.

أنا على الطرف الأيمن، وهناك على الطرف الأيسر قضبان حديدية لحافلة كهربائية يبدو أنها توقفت عن العمل في وقت قريب، لو كانت تعمل لخففت من هذا الزحام.

أين محل "التوحيد والنور"، المحلات هنا كلها تحمل أسماء إنكليزية، ومكتوبة بأحرف عربية ولاتينية.

فاميلي فود، بلو آيز، أوت أند إن ديزاينر، فيوتر هوم، سيتي ستارز، سيتي سنتر، وندر لاند، ريتش وود، بلاك آيز، فورنيتر تريد، غاليري، نيو كارز، رد هوم، كنتاكي، هت دوغ، ريستورانت، كويك فود، كوفي شوب، ترومف، عمر إيمدج، مصر سكان، لاب توب سنتر، مستر شو، نورماندي شوز، ميري لاند، تيك أوي فود، ريتش هوم، كيدز سنتر.

قليلة هي المحلات التي تحمل أسماء عربية، لماذا هي بالإنكليزية، ولماذا هي بأحرف لاتينية وعربية؟ لو كانت أسماء فنادق أو مطاعم للسواح لكان الأمر مقبولاً، ولكن لا مبرر لهذه الأسماء؟ أنا شخصياً أستنكر هذا، ربما في

داخلي شعور مناقض، يبعث على السرور أو الغرور، فأنا إنكليزي من أكستر، ولكن عقلي يقول لي: لا.

السائق يعلن بصوته الأجش العريض:

ـ أول عباس.

أول مرة أسمع صوت السائق، وهو يعلن عن بلوغه أول شارع "عباس العقاد"، الدليل هنا بين يدي يقول عنه: "أديب ومفكر مصري، توفي عام 1964، دفن في أسوان، مسقط رأسه"، الشارع واسع وعريض وطويل، كما يبدو لي من أوله، جميل هذا الوفاء لكاتب ومفكر، ولكن لا أظنه سيسعد بتسمية الشارع باسمه، وهو فيما يبدو لي مجرد شارع لبيع الألبسة والأحذية، ولا أظن أن فيه مكتبة تحمل اسمه.

ينزل حوالي عشرة ركاب، يخف الزحام قليلاً، الميل في الحافلة يقلّ، لا أكاد أصدق أنها لم تنقلب.

هنا على الطرف الأيسر أيضاً أرى جامعاً مئذنته ترتفع عالياً، ووراءه أرى قبة كنيسة يعلوها الصليب، وإلى جوارها برج الأجراس، المئذنة وبرج الأجراس متوازيان، والبناءان متشابهان، من إسمنت رصاصي أسود، كأنهما بنيا في وقت واحد، بل لا شك في أنهما بنيا في وقت واحد، هما توءمان، في اللون والشكل ونمط البناء، ومن قبل رأيت في العباسية جامعاً وكنيسة، رأيتهما متجاورين، هذا مظهر حضاري رائع، ما كنت أعرف عنه من قبل، حتى كتاب الدليل السياحي الذي قرأته مرتين، والذي لا يكاد يفارقني لم يذكر هذا الأمر، كم نحن مقصِّرون في معرفة مصر والعرب والمسلمين؟ بل كم نحمل أفكاراً غير صحيحة عن الناس هنا.

المساجد هنا كثيرة، قرأت عن القاهرة أنها مدينة الألف مسجد، الناس يفترشون السجاجيد في وقت الصلاة على الأرصفة وتحت الجسور وفي الأزقة وفي المحلات ويقفون للصلاة، بل رأيتهم يصلون على إسفلت الشارع، ولكنهم للأسف لا يعنون بالنظافة، أكوام القمامة في الشوارع كثيرة.

أسأل الشاب، فيجيبني:

ـ هذا هو محل "التوحيد والنور".

أنهض، أشكر الشاب، أدخل بين الأجساد، أقترب من الباب، أطلب من السائق أن ينزلني أمام محلات "عمر أفندي".

وتنعطف الحافلة، تدخل في شارع صاعد قليلاً، أظن الرحلة توشك على الانتهاء، أسمع رجلاً ورائي يطلب من السائق التوقف عند محل "عمر أفندي".

هذه الرحلة أجمل في الواقع من زيارتي أمس مع الفوج السياحي لمتحف القاهرة، هنا رأيت الناس، رأيت المصريين، وها هو ذا الرجل الشامي على الرصيف، ينتظرني، فور نزولي من الحافلة يسرع نحوي، يرحب بي، يعانقني، أنظر في الساعة، وإذا هي الرابعة والنصف، استغرقت الرحلة ساعة ونصف.

ـ سأحكي لك عن معاناتي.

ـ أعرف ذلك، أنا أردت أن تعيش هذه التجربة.

ـ حقيقة، هي تجربة ممتعة أجمل من زيارتي المتحف.

ـ إذن، لم أكن مخطئاً حين اقترحت عليك المجيء بالحافلة.

ـ لا، لم تكن مخطئاً أبداً، ولكن لن أعود إلى الفندق بالحافلة.

ـ ستعود مع سائق أعرفه، سأطلبه لك ساعة تشاء، كي يوصلك إلى الفندق مباشرة.

حَمَام القاهرة المحشو بالأرز

"كلوا واشربوا .....ولا تسرفوا"
القرآن الكريم

احتوانا مطعم فرحات، نحن أعضاء الفوج، بما فينا من اثني عشر رجلاً شائخاً، وثلاث عجائز، بالإضافة إلى السائق والدليل السياحي، الدليل هو الذي اقترح علينا تناول الحمام المحشو بالأرز، هو مما تشتهر به القاهرة من طعام، بعد الملوخية بالأرانب، كيف سيوفر لنا المطعم أربعاً وثلاثين فرخة، وقد طلب الدليل لكل واحد منا فرختين محشوتين بالأرز؟.

صعدنا الدرج إلى الدور العلوي، وقعدنا في البهو المطل من وراء الواجهة الزجاجية على حديقة ميريلاند، وهي واسعة جداً، يفصلها عن المطعم شارع عريض تمرّ به حافلة كهربائية (ترومواي) قديمة وهي تتهادى ببطء شديد وتتمايل وتوحي بالعراقة.

كانت حافلة الفوج السياحي قد مرت بنا في شارع إبراهيم اللقاني، وهو شارع جميل جداً، لفتت نظري المحلات المصطفة على جانبيه، لبيع الألبسة والأحذية ، يكاد يغص بالمشاة، يبدو لي مسلياً كثيراً، وددتُ لو نزلنا من الحافلة لنتمشى تحت الأروقة الممتدة على جانبيه، ونستمتع بالأعمدة ذات التيجان، والأبنية ذات الحجارة الصفراء، والنوافذ والشرفات المزخرفة، مررنا بسينما روكسي وانعطفت بنا الحافلة إلى اليمين، نحو مطعم فرحات، على اليمين ينهض مبنى قديم هو على ما يبدو ملعب من عهد الملك، ولكنه مهمل، وعلى اليسار تمتد حديقة ميري لاند، المحلات كلها التي مررنا بها تحمل أسماء أجنبية، بالإضافة إلى سينما روكسي، شانزيليزيه، ترومف، نابولي، مرة أخرى، لا أجد أي مبرر لهذه الأسماء.

العجائز الثلاث يجلسن أمامي إلى المائدة، هن من حظي دائماً، وإلى جواري الدليل وسائق الحافلة، باقي أعضاء الفوج توزعوا على مائدتين، إلى كل مائدة جلس ستة، الدليل وسائق الحافلة كل منهما في الخمسين، لعلي أصغر أعضاء الفوج سناً، وإن كنت قد بلغت الستين، أعضاء الفوج كلهم في نحو السبعين، بما فيهم العجائز، وإن كن يحاولن إخفاء أعمارهن بالأصباغ حول العينين وعلى الوجنتين وفوق الشفاه، جدتي العجوز شققت شمس أكستر جلدها، وحفرت في وجهها الأخاديد، وما عرفت الأصباغ.

العجوز كريستين تسألني:

ـ كنج إدوارد، بماذا تفكر، لماذا لا تتكلم؟ ما رأيك بجولة اليوم؟

هذا هو اليوم الثالث، يوم الأربعاء، وأنا فيه مستاء جداً، ومتعب، مزاجي متعكر، لست مرتاحاً ولا سعيداً، على الإطلاق، لا أعرف لماذا، من التاسعة صباحاً حتى الرابعة مساء، ونحن في زيارة الحدائق والمولات، من حديقة الحيوان إلى حديقة الأزهر الجديدة، ومن جنينة مول، إلى سيتي ستارز، إلى سيتي سنتر، إلى سراج مول، ثم إلى مطعم فرحات، تحطمت منا الأرجل، وأنا مشفق عليكن أنتن أيتها العجائز الثلاث.

سراج مول حدثني عنه الصديق الشامي الذي زرته يوم أمس، الثلاثاء، هو قريب جداً من شقته، حين وصلنا إليه اليوم وددت لو أني تركت الفوج وتوجهت إلى زيارة صديقي الشامي ثانية، أعرف موقع شقته، ويمكن أن أتوجه إليها، ولكن لم يكن من اللائق ترك هؤلاء العجائز، وأمس في طريق العودة من شقته إلى الفندق مررت في سيارة الأجرة بسيتي سنتر، الطريق عرفتها فور دخول الحافلة السياحية فيها هذا اليوم.

حديقة الحيوان ليست جديرة بالزيارة، من أسف أنها قديمة جداً، وغير متطوّرة، ولا تجديد فيها ولا تحديث، أشجارها ضخمة شائخة، والحيوانات فيها حبيسة الأقفاص، ولا حيوان فيها يمكن أن يوصف بأنه متميّز، هي كبيرة جداً وواسعة، وتفتقر إلى النظافة، والزحام فيها شديد، كثير من الأسر

المصرية تأتي إليها للنزهة، تحمل أكياس الطعام، تمضي النهار كله، من أولاد ورجال ونساء وشيب وشباب، ترتاح في ظل الأشجار، ومن حقها ذلك، ولكن لا بد من التحديث فيها والتطوير، ولا بد من العناية بالنظافة.

لعل أجمل ما لفت نظري قفص فارغ لحيوان دخلت إليه قطة عادية، وقعدت كأن القفص أعد خصيصاً لها، ووقف ولد صغير يتفرج عليها، وهو يقول لأبيه:" انظر أبي، هذه القطة، التقط لي صورة معها"، وما أكثر القطط العادية في حديقة الحيوان، بل ما أكثرها في شوارع القاهرة، وهي عجفاء ناحلة، كأنها لاتجد ما تأكله ولا من يؤويها، ولدى خروجي من شقة صديقي الشامي في مكرم عبيد، وهو حي راقٍ، رأيت عدة كلاب سائبة تحوم حول كومة من القمامة، وقد أحس السائق عوض بذعري منها، فقال لي:"اطمئن، هي آمنة ولا تؤذي أحداً، ووجودها في كثير من الشوارع عادي جداً".

طبعاً لا أنسى سيد قشطة في حيدقة الحيوان، بحجمه الضخم، وهو يغوص به في بركة كبيرة، ويفتح فمه الكبير، وإذا هو أكبر مما يتوقع المرء، ثم يخرج من البركة ليجُمَّ بفمه الكبير أكواماً من العشب الجاف ترمى له، والجميل جداً هو ولده الصغير الذي يسير إلى جانبه، والطريف في الأمر أن المصريين هم الذين سموه سيد قشطة، واسمه فرس النهر، وكان أول حيوان يوضع في الحديقة عند افتتاحها عام 1891، على نحو ماروى لنا الدليل السياحي.

ساءني جداً رؤية الأُسُود وقد حُبِسَت في زنازين إفرادية صغيرة صفت على طول ممر ضيق داخل مبنى مغلق، والزنزانة الواحدة بعرض مترين وطول ثلاثة أمتار وسقف واطئ جداً لا يعلو أكثر من متر ونصف المتر، ولا يكاد الواحد منها يستطيع التحرك في داخل زنزانته، وهي ترقب المتفرجين عن بعد من وراء القضبان، والمتفرجون يعبرون أمامها في الممر، مثل سجين محكوم عليه بالسجن مدى الحياة، لا أعرف سبب هذه الطريقة في العرض، وهي لا ترى الشمس ولا النور، ويبدو أنها مستسلمة لقدرها، راضية به،

مكتفية بما يرمى لها من عظام ليس عليها إلا القليل من اللحم، وقد رأيت أحدها وهو يلعق قطعة عظم ليس عليها شيء من لحم.

هي جديرة أن تعيش في فسحة واسعة من الأرض، من غير أقفاص، ويكفي أن يكون بينها وبين الزوار خندق فيه مجرى ماء عريض نسبياً، لأن الأسود تخاف المياه، ويمكن أن يكون جدار الخندق من طرف المتفرجين عمودياً.

بصورة عامة حديقة الحيوان في القاهرة بحاجة إلى عناية وتجديد، ويبدو المصريون راضين بها مستسلمين لما هي عليه، بل سعداء بها، ورسوم الدخول إليها زهيدة جداً بالنسبة إليهم، ولذلك تقصدها الأسر مع الأولاد الكثيرين، في حين تبدو رسوم الدخول إليها عالية بالنسبة إلى السواح الأجانب، بل هي عالية حتى بالنسبة إلى الزوار العرب من غير المصريين، وهذا خطأ لا يمكن أن يغتفر، وقد رأيت حارساً في باب الحديقة لا يسمح لعربي بالدخول لأنه اشترى تذكرة خاصة بالمصريين، وقد ألزمه برد التذكرة وشراء تذكرة خاصة بالعرب، والفرق بينهما عشرة أضعاف، وقد ساءني الموقف كثيراً.

الألفة أنست المصريين حاجة الحديقة إلى التطوير، بل حاجة مصر، ولذلك من الضروري معرفة رأي الآخر، لأنه يكشف عن عيوب لا نراها في العادة، ومن الضروري أن نعرفها، من أجل الأفضل.

ومن أكثر ما لفت نظري زحام حول قفص أسرع إليه أعضاء الفوج السياحي، ليستطلعوا الأمر، وإذا هو قفص فيه قرد يقهقه ويقلد ويصيح والمتفرجون من حوله يرمون له بالموز وعلب الكولا وينادونه بأسماء غريبة، وليس بعيداً عنه هناك قفص آخر فيه غزال لطيف جداً ناعم الأظلاف طويل العنق مكحول العين كأنه موسيقا هادئة، ولا أحد يمنحه نظرة.

حديقة الأزهر جميلة جداً، واسعة جداً، وفيها هضاب ومرتفعات، وهي تطل على القاهرة القديمة، وجديرة حقيقة بالزيارة، وفيها برك وأحواض كثيرة

تشبه البرك وأحواض الماء في إسبانيا، ولكن نحن ما جئنا إلى مصر لنزور الحدائق هناك في إنكلترة وفي أوربة حدائق كثيرة.

كريستين تسألني ثانية:

ـ كنج إدوارد، لم تجب عن سؤالي، بماذا تفكر؟ ما رأيك في جولة اليوم؟

ـ ليس عندي شيء أقوله، أودّ سماع رأيكن أنتن.

مارجريت تتكلم:

ـ أنا أعجبني جداً مول سيتي ستارز، بعماراته السبع، بل الثماني، وفندق انتركونتنتال الذي يشمخ مثل الهرم، وإن كنت بعد لم أر الهرم، وأعجبني مدخل المبنى الأول، ولاسيما التماثيل الفرعونية الناهضة في مدخله.

وتضيف ديانا:

ـ الحقيقة لو أمضينا خمسة أيام لما استكملنا زيارته كله.

وتتكلم كريستين:

ـ أنا أعجبني فيه بصورة خاصة جناح خان الخليلي، أردت أن أشتري منه الهدايا، ولكن أنت، أيها الدليل، نصحت لي ألا أشتري.

ويتكلم الدليل:

ـ في خان الخليلي الحقيقي عند الحسين هناك ما هو أجمل، والأسعار هناك أرخص.

وتتكلم ديانا:

ـ أنا، لولا قعودنا في أحد المقاصف، وتناولي فنجان الكبتشينو لما استطعت المتابعة، الخدمة في المقصف ممتازة.

كم شعرت بالقهر وأنت تطلبين من النادل كبتشينو، وددت لو أنهض، هممت أن أقول لك الكبتشينو هنا غير جيد، حتى لا تطلبيها، لا أحد يمكنه أن يحب الكبتشينو ويقدرها حق قدرها ويتذوقها مثل زوجتي، آه، فيث، ليتك كنت معي، فيث، أنا بحاجة إليك.

وتتتابع تعليقات العجائز مثل شجرة شائخة تتساقط أوراقها أمام ريح خريفية:

ـ أنا أعجبني أكثر جنينة مول، هو أهدأ وأصغر قليلاً، والأسعار فيه مقبولة، الأسعار في سيتي ستارز مرتفعة جداً.

ـ صدقت، أنا في الواقع ندمت على شرائي الحذاء من سيتي ستارز، وجدت مثله في جنينة مول بنصف ثمنه.

ـ لايمكن أن يكون مثله يا مرجريت، لا بد أن يكون أقل جودة.

ـ معظم المعروضات من إيطاليا وتركيا، تمنيت لو وجدت معروضات إنكليزية.

ـ لاشك، هناك بعض المعروضات، نحن لم نزر الأجنحة والأدوار كلها.

ـ الحقيقة سراج مول متواضع جداً، ومعروضاته رخيصة، ليتنا لم نزره.

ـ لكنه ممتع وأكثر تسلية، والناس فيه لا يتفرجون فقط، بل يشترون.

ـ هم يشترون من سراج مول لأن أسعاره رخيصة، وبضائعه عادية.

ـ صدقت، مارجريت، أكثر الرواد في سيتي ستارز لا يشترون، أكثرهم، بل ربما كلهم لا يشترون، جاؤوا للفرجة، لا للشراء.

ـ قليل جداً هم الذين يخرجون حاملين أكياساً.

ـ إلا مخزن سبنس، فكلهم يخرجون منه وهم يدفعون عربات مملوءة بالأكياس.

ـ هذا لأنه مخزن أطعمة ومواد غذائية.

ـ إيه، كنج إدوارد، لم تحدثنا عن انطباعك؟ ما رأيك في جولة اليوم؟

ـ هذه المولات كلها لم تنل إعجابي؟

ـ أوه، كينج إدوارد، هي رائعة، وعظيمة، حقيقة ليست مثل المولات في لندن أو باريس، مثلاً لا تجد هنا مثل لافاييت، ولكن سيتي ستارز عظيم.

ـ أنتم تنظرون إلى المبنى من الخارج فقط، وتأسركم الكتلة الحجرية الضخمة، وهذا هو الإحساس البدائي لدى الإنسان، تسيطر عليه الأماكن الضخمة، ويعجب بها، لأنه يحس أمامها بصورة لا شعورية بضآلة حجمه.

ـ لا، لا، كنج إدوارد، نحن نرى أيضاً تلك الأبنية الضخمة من الداخل، ونقدر ما فيها من معروضات ثمينة.

ـ نعم، أنت تقدّرين المعروضات الثمينة، ولكن المواطن المصري الفقير يقف أمامها ذاهلاً، وقد صعقته، هي تسيطر عليه، وتجعله يكره حياته.

ـ لا، كنج إدوارد، هذا غير صحيح، أنا رأيت المصريين يقفون أمام واجهات المحلات وهم يستمتعون برؤية المعروضات الثمينة، حقيقة هم لا يشترون، ولكنهم يتعرفون إلى عالم الثراء والترف، هذه المعروضات تهذب أذواقهم على الأقل.

ـ ولماذا لا نقول إنها تجعلهم يشعرون بالقهر والدونية؟

ـ لو شعروا بذلك لما جاؤوا للفرجة والتسلية، أنا أعتقد أنهم يستمتعون جداً بزيارة هذه المولات، أما رأيت الزحام في جنينة مول، مثلاً؟

وأعلق:

ـ أنا كنت أتمنى لو كانت مثل هذه المباني الفخمة مستشفيات أو جامعات، وما وظف فيها من رأسمال كان يكفي لعلاج كثير من الأمراض، وتخريج أعداد كافية من الشباب المتخصصين.

ويتدخل السائق إلى جواري ليتكلم:

ـ عندنا جامعات كثيرة، ولله الحمد، وهي تخرّج كل عام ألوف الطلاب.

ويضيف الدليل:

ـ وهم لا يجدون فرصاً للعمل، لا نريد مزيداً من الجامعات.

وأعلّق:

ـ الحقيقة هذه المولات لا تعبّر عن واقع الشعب المصري، هي تتناقض مع كثير من مظاهر الفقر.

ويتدّخل الدليل مرة ثانية، فيتكلم:

ـ على العكس، نحن بحاجة إلى هذه المولات، فهي تعبر عن نهضة البلد، وتدل على التطور، وكل مول منها يتيح فرص عمل كثيرة، من عمال وموظفين وحراس وعمال نظافة، ويساعد على تحريك رأس المال، ويجذب السواح.

وأرد:

ــ يمكن أن تكون مولات، لا بأس، ولكن لتحتوي حاجات وبضائع متنوعة، للأغنياء والفقراء.

ويرد السائق:

ـ هناك أسواق شعبية ومحلات كثيرة، يمكن أن تراها في العتبة مثلاً، لا بد من التفاوت، الله خلق الناس، وجعل منهم الغني والفقير.

وأعلق:

ـ لا، هذا غير صحيح، الله عادل في خلقه، ولكن الناس يظلم بعضهم بعضاً، وأنظمة الحكم هي التي تصنع هذا التفاوت بين الناس.

وترد مارجريت:

ــ أوه، كنج إدوارد، أنت اليوم اشتراكي طوباوي، يبدو أنك نسيت، الاشتراكية انتهت في العالم كله.

ـ لا، مارجريت، أنا أعرف كنج إدوارد، ما هو اشتراكي، هو اليوم متعكر المزاج.

ـ المشكلة أن كنج إدوارد يفكر في كل شيء، التفكير دائماً يعكّر المزاج، أنت الآن سائح، والمطلوب منك أن تتفرج فقط، ولا تفكر، التفكير يفسد المتعة، استمتع فقط، ولا تفكر.

يأتي النادل بفناجين كبيرة فيها حساء سُلِقَ فيه الحمام على ما يبدو، والدهن يعلو الحساء، له رائحة نفاذة، ثم يحضر لنا صحوناً صغيرة جداً فيها

قليل من السلطة واللبن الرائب والطحينة والمخللات، ثم يحضر أرغفة صغيرة مدورة.

انتظارنا للحمام سيطول فيما يبدو، لعلهم ينتظرون البيض في العش حتى يفقس، والفراخ حتى تكبر.

ألتفت إلى الدليل، أقول له:

ـ لو طلبت لكل واحد منا فرخة واحدة لكانوا لبوا الطلب بسرعة.

يجيبني:

ـ لا تكفي الواحد منا فرخة، الفراخ صغيرة كما سوف ترى.

ما كان أحرانا أن نكون جميعاً في ضيافة الصديق الشامي، فاجأني أمس بالمائدة التي أعدتها زوجته، كأنني أمام سهول أكستر الخضراء، كؤوس من اللبن الرائب، دُوّب فيها قليل من الملح، وأُضيف إليها الثلج، فهي باردة منعشة، وأطباق من أنواع مختلفة من الأعشاب والنباتات والجذور، سماها لي: الرشاد والهندباء والبصل الأخضر والفجل، كلها مغسولة فيما يبدو بعناية، ومقطعة بذوق وفن، وموزعة في الصحون والأطباق، وكأنني أمام لوحة فنية، وفي الوسط زورق واسع من البلور الأبيض الصافي، يعلوه ضلع خروف مطبوخ ومشوي، تحته طبقة كثيفة من الجوز واللوز والصنوبر المقلي بالزيت مع اللحم الناعم، وتحته طبقة من الأرز المطبوخ بمهارة فائقة، وتحته طبقة من الفريكة المطبوخة بتميز، ماهي بالقاسية الجافة، ولا هي بالرطبة المشبعة بالماء، أذكرتني المائدة بطعمها وعبقها بسهول أكستر، شممت في الفريكة رائحة القمح، ورأيت في الضلع غنمات جدتي وهي تسرح في الحقول، وتذوقت في الأرز سهول الصين، أو ضفاف النيل، وهو مني قريب، وإذا المائدة تجمع الشرق والغرب، والسهل والنهر، وانضاف إليها لوز إيران وفستقها، بل فستق حلب، أكد لي الرجل الشامي، قال:"حلب مدينة مشهورة بفستقها"، وأكّد لي ذلك، قال: "هناك كروم كثيرة تحيط بحلب كلها مزروعة بأشجار الفستق"، لا بد من أن أصدقه، وإن كنت قد قرأت أن موطن الفستق

هو إيران وتركيا، ولعل زراعته انتقلت إلى حلب، ولكن لا يمكن أن يزعم أن الصنوبر من حلب، ولا من مصر، هو من غير شك مستورد من الصين، هو من النوع الصيني أعرفه جيداً، فهو قصير نسبياً وليس مخروطياً تماماً، بخلاف الصنوبر الأمريكي، مذاق المكسّرات المقلية مع اللحم متميز، أعادني اللبن الرائب مع الثلج إلى سهول أكستر ومراعيها وشمسها المشرقة والربيع الخصب.

زوجته سيدة وقور، متحجّبة، ترتدي ثياباً بيضاء طويلة محتشمة، لعلها هي الثياب نفسها التي ترتديها حينما تقف للصلاة، وأعتقد أنها كذلك، وقد رحّبت بي ببشاشة، وسرور، كأنني ضيفها، لا ضيف زوجها، يبدو أنهما زوجان متحابّان، مثلي أنا وفيث، آه، فيث، كم أتمنى لو كنت معي، زوجته لم تذهب وحدها إلى شرم الشيخ، وتتركه مثلك وحدي هنا في القاهرة، زوجته هي التي تسكب في صحني الأرز والفريكة، وتحرص على أن تضع في صحني مزيداً من اللحم الناعم المقلي مع الجوز واللوز والفستق، وأنا في الحقيقة أطمع في مزيد من هذا المزيج الشهي، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، هذه حقيقة، ولكن من غير الخبز لا يستطيع أن يحيا، هذه حقيقة أخرى أيضاً، ولكن أكثر الناس يأكلون أكثر مما هم بحاجة إليه، النفس تشتهي الطعام، وتنساق وراء شهوتها، يبدو لي الطعام دافعاً أقوى من الجنس، لو أنصف فرويد لقال بالطعام لا الجنس.

فيث، لو كنت معي لأعجبت بهذه السيدة المؤمنة مثلك، وكنت تحاورت معها حول قضايا الدين، لاشك سوف تعجبين بها، وستتعلمين منها طريقة إعداد مثل هذا الطعام، أعرفك تحبين الأطعمة البحرية، ولا سيما الجمبري، أرجو أن تسامحيني، لقد تناولت الجمبري أمس الأول، يوم الإثنين مساء، تمنيت أيضاً لو كنت معي، كان الأمر مصادفة، بعد أن تناولت الغداء في الفندق مع الفوج السياحي، نمت ساعة، ثم نزلت لأتجول على ضفة النيل، قطعت جسر قصر النيل كله، من أوله إلى آخره، يبلغ طوله فيما أقدر أربعمئة

متر، في آخره يربض أسدان، مثل الأسدين اللذين في أوله، تأملتهما طويلاً، أظن أني قرأت على قاعدة أحدهما أن الجسر افتتح عام 1933، في عهد الخديوي إسماعيل، عند نهاية الجسر ينهض تمثال سعد زغلول، في ساحة تفضي إلى دار الأوبرا، دخلت إلى حديقة دار الأوبرا، وقفت طويلاً أمام تمثال أم كلثوم أتأمله، موسيقا أغنيتها "شمس الأصيل" ما تزال تسري في عروقي مع الدم، أمس استمعت إليها مع الصديق الشامي وفي شرفة شقته، من بعض أغانيها تعلمت بعض الكلمات العربية، مبنى دار الأوبرا جميل جداً، من هناك وجدت نفسي أمام درج ينزل بي إلى المترو، كانت الساعة حوالي الثامنة، نزلت إلى المترو، الزحام فيه شديد، ولكن الأدراج والساحات والعربات نظيفة، الناس هنا يتعاملون مع المترو بدقة ونظام واحترام، لم أكن أقصد أي هدف، غادرت المترو في محطة محمد نجيب، وما إن سرت بضع خطوات خارج المحطة على الرصيف حتى رأيت أمامي محلاً لبيع الجمبري، أوه، ياللمصادفة، هذا المحل يحمل اسم الشامي أيضاً، صاحبه مصري، ليس شامياً، هو مطعم صغير، فيه مناضد بيضاء نظيفة، وراء المصطبة يقف رجل في ثياب أنيقة نظيفة جداً، الرجل يرحب بي بحرارة، الناس هنا طيبون جداً، دائماً يرحبون بك، كأنهم يعرفونك منذ زمن، يكلمونك بإنكليزية محببة، على الفور يضع أمامي صحناً فيه قليل من الطحينة الممزوجة بحمض الليمون، هي شهية جداً، في طبق آخر يقدم لي الجرجير، ذكرني بك يا فيث، هو عشب بري، ولكن كأنه بحري، فيه رائحة اليود، شممت فيه رائحة البحر، ورأيت جسدك وأنت تغوصين في الأعماق، فيث، يا إلهي ليتني كنت معك، ليتك كنت معي، ثم جاءني بطبق نظيف جداً فيه تسع قطع من الجمبري المقلي بالزيت، الجمبري متألق كالذهب، لا شك في أنه قلاه في زيت أصفر نقي، الرجل أمين جداً، زان أمامي قطع الجمبري في ميزان قديم صغير ذي كفتين، كم هو جميل ذلك الميزان، وقد وضع في الكفة قطعة جمبري زيادة، وجعل الكفة ترجح، كم هو سمح وكريم، الطعام كان شهياً جداً، كان عشاء رائعاً، ورجعت بالمترو

نفسه إلى محطة دار الأوبرا، سعدت كثيراً لأنني عرفت طريق العودة من غير أن أسأل أحداً، وعدت إلى جسر قصر النيل، تمشيت من أوله إلى آخره على مهل، حتى الواحدة، ثم توجهت نحو الفندق، من الطبيعي أن يتناول المرء الجمبري، ومن الجميل أن يغوص المرء في البحر، ولكن الطير المحلق في السماء لا أريد لجناحيه أن يهيضا وأن يقنص، وبعد أن غسلت يدي بالماء والصابون ناولني منديلاً معطراً، وأبى إلا أن يقدم لي كأس شاي معطراً، كان الشاي لذيذ الطعم جداً، هو فاتح اللون، ولكن فيه لسعة خفيفة من شاي مخمر، كنت أرتشف الشاي في كأس صغيرة رقيقة جداً، ذات خصر، تحمل جوانبها رسوماً مذهبة، أحسست عند ارتشافها كأنني أرتشف من شفتيك الرقيقتين أيتها الزوجة الغائصة الآن في أعماق البحر؟ هل تناولت أنت هناك الجمبري مثلي؟ صدقيني تمنيت لو أنك معي، وأنا أدفع له ثمن الوجبة قال لي: "أنت ضيفنا"، وحاول ألا يأخذ مني ثمن الوجبة، ولكنني أبيت، وأنا أعرف أنه سيأخذ ثمن الوجبة، من غير شك، وأن كلامه هو مجرد قول لن يلحقه بفعل، ولكنه مع ذلك قول جميل، شعرت نحوه بارتياح، وهو حقيقة رجل بشوش مريح، في وجهه بسمة رضا واطمئنان، وهو مصري من غير شك، ولكن ربما كان جده الأول من الشام، ولذلك على فوق المحل لوحة تحمل اسم الشامي، ثمة وجوه ألفتها هنا، ولا يمكن أن أنساها، وأتمنى أن أراها مرة ثانية، سائق الحافلة، الدليل الذي يرافقنا دائماً، السائق عوض، النساء العجائز الثلاث.

وهذا الرجل الشامي يقتطع قطعاً من لحم الضلع، ويضعها في صحني، وهو يحرص على استبعاد قطع الدهن الأبيض، اللحم ناضج بصورة مذهلة، الأعشاب والجذور منحتني شمس الشرق، المائدة حقيقة تجمع لحم الضأن في الشام وقمحه إلى أرز مصر، وتضيف إليه المكسرات، أتمنى لو كان الفريق كله معي ليتذوق العجائز ذلك الطعام الشرقي، كان يكفينا جميعاً.

حدثني الرجل فقال:"الفريكة هي القمح، تحصد السنابل أول نضجها، أواخر نيسان، وقد اكتنزت بالحنطة الخضراء، تحصد قبل أن تلفحها شمس

أيار فتيبس، ثم توضع السنابل أكواماً أكواماً، وتحرق حرقاً غير تام، ثم تترك كي تجف قشرة السنابل، ثم يفرك القش المحترق، وتخرج حبات القمح الخضراء مشوية، وتترك كي تيبس، ثم تطحن طحناً خفيفاً، أو بالأحرى تجرش، فتتكسر الحبات، وهذه هي ما يسمى الفريكة، ثم تطبخ كما يطبخ الأرز، ولا بد لها من كثير من اللحم والدهن والسمن". وأضافت زوجته:"هذه الفريكة فيها عبق من سهول حلب، أحضرنا معنا قليلاً منها من حلب، لا أظن الفريكة موجودة في القاهرة، حتى لو كانت موجودة، فهي ليست كالفريكة في حلب، هذه تحمل رائحة حلب". وأضاف الزوج: "حتى هذا اللحم هو من من لحم الغنم الذي يربّى في سورية، وفي تركيا، هو غنم العويس، له ألية كبيرة تختزن الدهن، هو غير الغنم الموجود هنا، هنا غنم الكندوز والبتلو، مذاق العويس متميز". وأقول له:"صدقت، فهذا مذاقه أطيب، ولا شك في أن طريقة طهوه متميزة، الفضل لزوجتك". وثار فضولي، فسألته عن طريقة الذبح في الإسلام وإن كان لها تأثير حسن في مذاق اللحم، فأكد لي ذلك، ثم أخذ يحدثني أنه من الواجب في الشريعة الإسلامية ذبح الحيوان بسكين حادة، تسهل على الحيوان الذبح، ويكتفى بإحداث فتحة في القصبة الهوائية، ولا تقطع العنق، وعلى الفور ينقطع الأوكسجين عن الدماغ، ويموت الحيوان، بسرعة، ثم يستنزف الدم من فتحة العنق، ولا يبقى منه شيء في جسم الحيوان، وبذلك يصفو اللحم، ويصبح نقياً، وذكر لي أنه من الواجب ذكر اسم الله عند ذبحه، لأن الله هو الذي سمح بذبحه وتناول لحمه، ولا يجوز خنق الحيوان أو إيذاؤه أو ضربه، بل لا بد من إروائه من الماء قبل ذبحه، ولا يجوز ذبح خروف أمام خروف، هي قيم ومعان إنسانية حقيقية، كذلك الأمر بالنسبة إلى الدواجن، وكل الذبائح.

جدتي كانت تحرص وأنا صغير على أن تطعمني كمية كبيرة من اللحم المطبوخ، ولاسيما اللحم الأحمر، وأنا لا أحبه، أجد صعوبة في مضغه، لا أكاد أبتلع اللقمة، كثيراً ما أحتفظ بها في فمي ثم أرميها في منديل، أو أقذف بها

تحت المائدة، أما هذا اللحم فشهي حقيقة، أحب اللعب مع الخراف، ولو نطحتني الكباش، ولا أحب تناول لحمها، هذا اللحم متميز حقيقة.

بعد تناولنا طعام العشاء، حوالي الثامنة انتقلنا أنا والرجل إلى الشرفة، هي شرفة صغيرة، بطول ثلاثة أمتار، وعرض مترين، جلسنا على مقعدين من جلد مريحين جداً، وبيننا طاولة واطئة، وأمامنا تمتد حديقة طويلة، تعلو فيها أشجار كثيفة، والمرج فيها أخضر، تتوسطها حلقة من الزنبق الأصفر، وما هي إلا دقائق حتى دخلت علينا زوجته بطبقين فيهما حلوى، أخبرني أنها مما تشتهر به حلب، هي محشوة بالفستق المحمص، ومروية بالقطر، ولها عبق عطري منعش، هي شهية حقاً، ناولني قطعة قال لي: "هذه من أشهر الحلويات في حلب، اسمها مبرومة"، لذيذة حقاً، ويمرّ في الفضاء أمامنا طائرة منخفضة الارتفاع تبدو متجهة نحو المطار، كم كنت أحب الطائرات، وأنا طفل، وما أزال أحبها وأنا كهل، ما إن أسمع صوت طائرة ستمر فوق البيت في سماء أكستر، حتى أركض نحو الشرفة أو النافذة حتى أراها، وعندما تمر فوقي وأنا في الحقل مع الغنمات، كنت أركض تحتها، أتخيل أني أسابقها، وكبرت وسافرت في الطائرة ربما ما مجموعه أكثر من مئتي ساعة طيران، وما أزال أتوق إلى السفر بالطائرة، ويهفو قلبي وأنا كهل لرؤية الطائرة، كيف يمكنني أن ألتهم الآن طيراً كان يحلّق قبل قليل بحرية في الفضاء؟.

أحضر صديقي الحاسوب المحمول، ووضعه في الشرفة، ثم أسمعني أغنية أذهلتني بموسيقاها الجليلة وصوت المطرب الوقور، أحسست في النغم عبق الماضي وقوة التاريخ وجمال الكون، وأسمع المطرب يردد اسم النيل، وأسأله:"هل هي عن النيل؟"، فيجيب نعم، وبعد انتهائها أخذ يترجم لي معانيها فسررت بها جداً.

النهر الخالد

غناء محمد عبد الوهاب ـ كلمات محمود حسن اسماعيل

مسافر زاده الخيال ـ والسحر والعطر والظلال
ظمآن والكأس في يديه ـ والحب والفن والجمال
شابت على أرضه الليالي ـ وضيعت عمرها الجبال
ولم يزل ينشد الديارا ـ ويسأل الليل والنهارا
والناس في حبه سكارى ـ هاموا على أفقه الرحيب
آهٍ علي سرك الرهيب ـ وموجك التائه الغريب
يا نيل يا ساحر الغيوب

يا واهب الخلد للزمان ـ يا ساقي الحب والأغاني
هات اسقني ودعني ـ أهيم كالطير في الجنان
يا لينتي موجة فأحكي ـ إلى لياليك ما شجاني
وأغتدي للرياح جارا ـ وأحمل النور للحيارى
فإن كواني الهوى وطارا ـ كانت رياح الدجى نصيبي
آهٍ على سرك الرهيب ـ وموجك التائه الغريب
يا نيل يا ساحر الغيوب

سمعت في شطك الجميل ـ ما قالت الريح للنخيل
يسبح الطير أم يغني ـ ويشرح الحب للخميل
وأغصنٌ تلك أم صبايا ـ شربن من خمرة الأصيل
وزورق بالحنين سارا ـ أم هذه فرحة العذارى
يجري وتجري هواك نارا ـ حملتُ من سحرها نصيبي
آهٍ علي سرك الرهيب ـ وموجك التائه الغريب
يا نيل يا ساحر الغيوب

وقد دهشت حين أخبرني أنها لمطرب كبير من مصر اسمه محمد عبد الوهاب، وسألته:

ـ أنت من حلب، بالشام، وتحب هذا المطرب، وهو من مصر، وتفهم لهجته؟

ويبتسم، ثم يجيبني:

ـ نحن شعب واحد، ولغتنا واحدة، وهذه الأغنية باللغة العربية الفصيحة.

ـ وهل تصلح العربية الفصيحة للغناء؟

ـ أوه، كثير من الأغنيات بالعربية الفصيحة.

ـ وهل تحب النيل؟

ـ أحبه مثلما أحب الفرات وبردى.

ـ أعرف الفرات، هو نهر، ولكن بردى، هل هو نهر؟

ـ نعم، نهر يجري في دمشق.

أعرف الفرات، وأعرف النيل، وأعرف أن إسرائيل تريد أن تتوسع وتمد حدودها من الفرات إلى النيل، ولكن هذا غير معقول، هنا شعب وأرض وتاريخ، هذا غير ممكن، وغير مقبول، حتى فلسطين، أنا لا أعرف كثيراً عنها، ولكن أشعر أن هناك خطأ ما فيما تقوله إسرائيل، هل أسأله؟ لكن، لا، أخشى أن أزعجه، سنبقى مع النغم، سأستمع إليه، سأدعه يتكلم.

ـ بالمناسبة، أود أن أخبرك، حلب هي مدينة الطرب، أرجو أن تعلم أن هذا المطرب، محمد عبد الوهاب، قد زار حلب، وفيها غنى.

ـ وهل استمع إليه الناس؟

ـ سأروي لك، كان هناك في حلب مقهى صيفي مشهور، يرتاده علية القوم، اسمه الشهبندر، وقدم محمد عبد الوهاب إلى حلب ليحيي فيه حفلتين، في الليلة الأولى نظر من وراء الستارة إلى الجمهور قبل أن يخرج إلى المسرح، فلم ير غير خمسة رجال أو سبعة في الصف الأول.

ـ أوه، يا للخسارة.

ـ نعم هكذا صاح محمد عبد الوهاب، والتفت إلى صاحب المقهى، واعتذر إليه عازماً على العودة إلى الفندق، وهم بأن يرد إليه المبلغ الذي أعطاه إياه، وقال له:لا أريدك أن تخسر.

ـ عبد الوهاب رجل نبيل.

ـ نعم، ولكن صاحب المقهى أصرّ على أن يغني عبد الوهاب، فخرج إلى المسرح، وغنى، أحيا ليلة طرب رائعة، غنى بصدق وفن وإخلاص، ثم اعتذر ثانية لصاحب المقهى، وأصر على أن يرد إليه المبلغ، وأن يغادر حلب، ولكن صاحب المقهى تمسك بالعقد، وأصر على أن يحيي عبد الوهاب ليلة ثانية، وفق العقد، وفي الليلة التالية ماذا تتوقع؟

ـ لم يحضر أحد.

ـ لا، كراسي المقهى الصيفي امتلأت كلها.

ـ ما السر؟ كيف حدث ذلك؟

ـ الرجال الخمسة أو السبعة الذين حضروا في اليوم الأول هم أصحاب خبرة وذوق، هم صفوة مَنْ يُحسن الاستماع ويقدر النغم، وهم الذين قدّروا غناء عبد الوهاب، فأشاعوا الخبر، وفي اليوم التالي امتلأ المقهى بالحضور.

ـ هذا يعني أن أهل حلب يقدّرون النغم، ولا يستمعون إلا إلى ماهو جيد.

ـ نعم، حلب هي مدينة الطرب.

وأطلب منه أن يسمعني الأغنية مرة ثانية، فيقول بل سأسمعك أغنية أخرى للمطرب نفسه.

وأصغي إلى النغم، فأشعر بالرقة واللطف، وأحس بانسياب رخيّ ناعم، ثم أسمع المغني نفسه بصوته الذكوري وهو يهتف باسم كليوبترا ويذكر النيل، فأحس بأني أتهادى في زورق فوق النيل، ويأخذ الصديق الشامي بترجمة معاني الأغنية.

كليوباترا... أيُّ حلمٍ من لياليكِ الحسان

طاف بالكون فغنّى وتغنّى الشاطئان
وهفا كلُّ فؤادٍ وشدا كلُّ لسان
هذه فاتنةُ الدنيا وحسناء الزمان
بُعِثَتْ في زورقٍ مُستَلهَمٍ من كلِّ فنّ
مرح المجدافِ يختالُ بحوراءَ تغنّي
يا حبيبي هذه ليلةُ حبي آه لو شاركتني أفراحَ قلبي
ليلنا خمرٌ وأشواقٌ تغني حولنا
وشراعٌ سابحٌ في النور يرعى ظلنا
كانوا في الليل سكارى وأفاقوا قبلنا
ليتهم قد عرفوا الحب فباتوا مثلنا
كلما غرّد كاسٌ شربوا الخمرةً لحنا
يا حبيبي كل ما في الليلِ روحٌ يتغنّى
هاتِ كأسٍ إنها ليلة حبي آه لو شاركتني أفراح قلبي
يا ضفاف النيل ويا خضر الروابي
هل رأيتنّ على النهر فتىً غضَّ الإهابِ
أسمرَ الجبهةِ كالخمرةِ في النور المُذابِ
سابحاً في زورقٍ من صنع أحلامِ الشبابِ
إن يكن مرَّ وحيّا من بعيدٍ أو قريبٍ
فصفيهِ وأعيدي وصفهُ فهو حبيبي
يا حبيبي هذه ليلة حبي آه لو شاركتني أفراح قلبي

ويسألني الصديق الشامي:
ـ هل مررت بباب الشعرية؟
ـ ربما، لكن لا أعرف.

ـ هناك تمثال في وسط الساحة، لرجل ناحل، يقعد على كرسي، وإلى جانبه عود.

ـ هل هو تمثال محمد عبد الوهاب؟

ـ نعم.

ونحن في الشرفة نتحدث شممت عبق رائحة متميزة، تنساب إلينا من المطبخ، ما هي برائحة القهوة الفرنسية التي أحبها، ولا هي بالنسكافيه، وبعد قليل دخلت علينا زوجته تحمل صينية فيها فنجانان صغيران مذهّبان، لا عروة لهما، وبينهما دلة قهوة ذهبية اللون، مثل ديك رومي جميل، وضعتها على المائدة وانصرفت، صب الرجل الشامي في الفنجان الذي أمامه قليلاً منها، تذوّقها، ثم صب في الفنجان الذي أمامي قليلاً منها أيضاً، وناولني الفنجان، شعرت بالاستياء، لأنه شرب قبلي، ولكنه ما لبث أن قال: "هذه قهوة عربية مرّة، من أصول الضيافة أن يشرب المضيف قليلاً منها قبل الضيف، حتى يطمئن الضيف ويشعر إلى أنها غير مسممة مثلاً وليشعر الضيف بالأمان، هذه مما يقدمها العرب ولاسيما البدو في الصحراء"، أتذوقها، فأحس بانتفاضة في جسمي، كأنها انتشرت على الفور في عروقي كلها، وجرت مجرى الدم، أشم نكهتها المتمزة، هي مرة وكثيفة، ولها عبق خاص، أسأله عنه، فيقول: "هو الهال"، وأطلب منها المزيد.

ثم أسأله:

ـ هل تعرف أم كلثوم؟

ويسرّ كثيراً لسؤالي، وينهض على الفور، ويضغط على أزرار الحاسوب، وينداح النغم.

شمس الأصيل

كلمات: محمود بيرم التونسي

غناء: أم كلثوم

شمس الأصيل دهبّت
خوص النخيل يا نيل
تحفه ومتصورة
في صفحتك يا جميل
والناي على الشط غنى
والقدود بتميل
على هبوب الهوا
لما يمر عليل
*
يا نيل أنا واللي أحبه
نشبهك بصفاك
لانت ورقت قلوبنا
لما رق هواك
وصفونا في المحبة
هو هو صفاك
ما لناش لا احنا ولا انت
في الحلاوة مثيل
*
أنا وحبيبي يا نيل
نلنا أمانينا
مطرح ما يرسى الهوى
ترسى مراسينا
والليل إذا طال وزاد
تقصر لياليا

واللي ضناه الهوى
باكي وليله طويل
*
أنا وحبيبي يا نيل
غايبين عن الوجدان
يطلع علينا القمر
ويغيب كأنه ما كان
بايتين حوالينا نسمع
ضحكة الكروان
على سواقي بتنعي
ع اللي حظه قليل
يا نيل

أقول له:

ـ شكراً، أنت صاحب ذوق.

عبق القهوة ومذاقها القوي ينساب في العروق مع النغم الهادئ، أطلب من صديقي أن يملأ الفنجان كله، لا أعرف لماذا يصب لي فيه قطرات قليلة، أرتشف القهوة المرة، وأنا أصغي إلى النغم، هذه الأغنية سمعتها، موسيقاها متغلغلة في عروقي، أنا متأكد أنها أيضاً عن النيل، هي أكثر رقة ونعومة، فيها عاطفة وحب.

وأسأله:

ـ وهل زارت أم كلثوم حلب؟

ـ نعم، زارتها مرتين، وفيها طبعت أسطوانات بعض أغانيها، حلب بلد الطرب.

ويأخذ في ترجمة بعض معانيها، جميل جداً أن يجلس العاشقان معاً على ضفاف النيل، أمس رأيت الشبان والصبايا، ليتك كنت معي يافيث.

ـ هل تأخذ زوجتك إلى النيل وتقفان معاً على الجسر.

ويضحك، يقهقه:

ـ طبعاً، كل يوم، وإلا فلماذا جئنا إلى مصر، كل يوم نذهب إلى النيل، نركب في زورق، أو نقف على الجسر، أو نقعد في حديقة الجزيرة المطلة على النيل، أنصح لك أن تجرب ذلك كله.

حتى الآن لم تصل الفراخ المحشوة، مرت نصف الساعة، بدأنا نحس بالجوع، ونحن الراجعين من زيارة المولات والحدائق، أيدينا بدأت تتناول لقيمات من الخبز السميك نغمسه في الطحينة، ونحتسي من فناجين الحساء الذي أصبح بارداً، وهو بحاجة إلى قليل من البهار، ليغطي رائحة الدسم.

بدأت أفكر، كيف نسمح لأنفسنا باقتناص تلك الطيور، الآمنة الوادعة وذبحها ونتف ريشها وسلقها وتناولها؟ كيف ننقضّ على جناحيها الناعمين؟، كيف نذبحها ونحن ندعوها حمامات السلام؟، كيف نسمح لأنفسنا أن ندخل الأشواك والسكاكين في أجسادها البضة الناعمة؟ بل كيف نقبل أن نراها في أطباقنا وهي المحلّقة في أجواز الفضاء؟ من حقها أن ترف بأجنحتها وتزهو أمامنا بريشها.

ويأتينا النادل يحمل أطباقاً يوزعها علينا، أنظر في صحني.

أنا أمام جثتين قطع منهما الرأس، ونتف منهما الريش، والتصقت منهما الأقدام بالجسد، وكأنهما جثتان متفحمتان إثر حريق مفاجئ، أو كأن نار بركان قد انصبت عليهما، الجلد مشدود منكمش وقد قُلِيَ بالزيت، كأنه جلد المومياء.

العجوز أمامي تدخل السكين في جوف الجثة، ويتناثر من داخلها الأرز، وقد قُلِيَ هو الآخر بالزيت، فأصبح أحمر اللون، وكأن النار كوت الجلد ثم اخترقته إلى الداخل، كأنني أمام جثة حقيقية متفحمة.

يقول لنا الدليل:

ـ هذه لا تؤكل بالشوكة والسكين، هذه تؤكل هكذا باليد.

ويمسك بالفرخة السوداء المحترقة، بأصابعه الخمسة، يحكم قبضته عليها، يرفعها إلى فمه، ويقضم الجسد، ويشد بأسنانه الجلد المنكمش، على الأصابع يسيل الدهن، شفتاه تلتمعان من الدهن، شارباه الكثيفان ملوثان بالدهن، أرى الشيوخ العجائز من أعضاء الفوج يقضمون الحمام بأسنانهم الصناعية.

أنظر من خلال النافذة إلى الحافلة والسيارات، أرى عجوزاً تحاول قطع الشارع، شرطي المرور يقترب منها، يساعدها على قطع الشارع، كم تشبه جدتي، كأنها جدتي، كم أود لو أنزل لمساعدتها على قطع الشارع، أرجو لروح جدتي السكينة والاطمئنان.

على الرصيف أسفل المطعم، شيخ عجوز يقعد على الرصيف، يمدّ يده اليمنى، يسأل الناس، يده الأخرى تبدو مقطوعة، ألتفت إلى النادل أقول له:

ـ هل يمكن أن تلف لي الفرختين بورق، وتضعهما في كيس؟

أنهض، اعتذر لأعضاء الفوج السياحي:

ـ اعذروني، سأنتظركم على الرصيف، سأتمشى قليلاً، أحب أن أرى الشارع، أريد إلقاء نظرة على المحلات المجاورة للمطعم.

تسألني إحدى العجائز:

ـ والفرخة؟

ـ سآخذها معي، قد أتناولها في الفندق.

خارج المطعم أناول الرجل العجوز صاحب اليد المقطوعة الكيس الورقي وفيه الفرختان.

البحث عن طريق العودة إلى غراند حياة

وشبيه صوت النعيِّ....
بصوت البشير
المعري

في باب الخلق تقف السيارة، يخرج منها، فيعلّقُ حزام الحقيبة المشدودة إلى ظهره بباب السيارة، يتشبث بالحقيبة، يلتفت إليه السائق يسأله: "تريد المساعدة؟"، يشير إليه برأسه، وهو يقول: "لا"، يهمّ السائق بالنزول، ولكن الرجل كان قد استل من جيبه مشرطاً، وبحركة عصبية قطع الحزام. "وهل هو حبل السرة حتى أظل متعلقاً به؟ الحقيبة أهم عندي منه".

عشرون دقيقة كان من المفترض أن تكون كافية ليصل من فندق "غراند حياة"، فتح الحاسوب، ونظر في الخريطة الرقمية، الموصولة بالأقمار الصناعية، من "غراند حياة" في "جاردن سيتي" إلى "باب الخلق"، عشرون دقيقة كافية للوصول في سيارة الأجرة، ولكن الرحلة استغرقت تسعين دقيقة، الزحام في الطرقات كلها شديد، لا يتصور، معامل السيارات في العالم كلها قذفت حمم سياراتها فسالت في شوارع القاهرة، ثلاثون مليون مواطن، ومليون سيارة.

وتهب نفحة من هواء تموز، ساخنة محمّلة بغبار دقيق ناعم، يستقر الغبار في مؤق عينيه، يسيل الدمع على الرغم منه، السيارة كانت نظيفة من الداخل، ومغلقة النوافذ بإحكام، ومكيّفة، العداد فيها لا يعمل، لا يعرف لماذا هي سوداء مع قليل من البياض فوق العجلات، كأنها من الخارج سيارة نقل الموتى، ولكنها في الداخل مريحة، كأنها الرحم، ليته ظل فيها، ولم ينزل.

يلتفت إلى السائق، يقول له:

ـ الساعة الآن العاشرة، أحتاج إلى ساعة، على الأقل، سأتصل بك بالجوال، أرجو أن تكون في انتظاري هنا، في نفس المكان.

ـ سأنتظرك عند الأزهر، هناك تنتهي جولتك.

ـ لا، يا عوض، أريد من حيث نزلت أن أصعد مرة ثانية.

ويدخل في الموسكي، يمسح بمنديله الدمع المنحدر من عينيه.

حيث ولدت أتمنى أن أدفن، لا بد أن أعود إلى إكستر، مسقط رأسي، ولو درتُ العالم كله، لا بد أن أموت هناك، ولو متّ هنا، فوصيتي تلزم زوجتي أن أدفن في إكستر، لتمت هي في البحر، كما تشاء، أمنيتي أنا أن أموت في أكستر، وأدفن فيها.

يحس بحاجة إلى الحليب، اعتاد أن يبدأ دائماً يومه بكأس من حليب بارد، الطفل يبدأ حياته بالحليب، هذه هي الحياة الحق، يستمد منه بعض الطاقة ليتمكن من التجوال في الموسكي وخان الخليلي والحسين، يقف أمام بائع عصير، يطلب منه زجاجة حليب، يتردد البائع، زجاجات الحليب عنده لتخلط مع العصير، ولكن مادام الرجل سيدفع فلا بأس، يأخذ الزجاجة ويمضى بها، في السوق المكتظ يرفعها إلى فمه، يبل حلقه، الأعين تنظر إليه، وتبتسم، يدرك ما في المشهد من غرابة، وليكن، فليحسبوه طفلاً، هل ثمة ما هو أجمل من الطفولة؟ بعد جرعتين اثنتين يأخذ في البحث عن سلة مهملات، وفي زاوية من الطريق يجد كومة قمامة، فيضعها فيها، الحليب دسم جداً، يتذكر ما قرأه في كتاب الدليل السياحي عن تربية الجاموس في ريف مصر، لا شك في أن الحليب كان حليب جاموس.

أمام محل لبيع أغطية الرأس يشتري غطاء من الشاش الأبيض الرقيق، يلفّ به رأسه، يريد أن يحمي رأسه من شمس تموز اللاهبة، الزحام يشتد، والسوق يضيق، والباعة على الجانبين يزيدون من ضيق السوق المزدحم بالسائحين والسائحات من أمثاله، أنا في مصر، في القاهرة، في الموسكي، ولكن أكثر من حولي من أوربة، من فرنسة وإنكلترة ومن أمريكا وأستراليا،

النساء المصريات قليلات، وهن متلفعات بألبسة تستر أجسادهن، حتى العنق لا يكاد يظهر، يشتهي أن يرى جسداً أسمر أحرقته الشمس فهو بلون الطين، الصدور والنحور والأذرع العارية من حوله كلها بيضاء لوحتها شمس أفريقية، يكاد يلتصق بذراع عارية في الزحام، بل يمس الذراع عن غير قصد، يلتفت إلى السائحة يهمس لها معتذراً، تنظر في عينيه الزرقاوين، ولحيته الشقراء، تبتسم، يثور فيه الشوق إلى الجسد، يودّ لو يلتصق بها وهو يرى قمة نهديها والوادي المنساب بينهما.

وأنا طفل أسرح مع غنمات جدي في سهول إكستر، أطارد مع الكلب "موغي" الغنمات، أشدها من أليتها، أختلط بالقطيع، أمتزج به، أحس أني واحد منه، أفرح إذ يركض ورائي الكلب "موغي"، أركب على نعجة، أستدفئ بصوفها الناعم، أشارك جدتي في حلب النعجة، كم يلذ لي أن أمسك بضرعها، وأعتصر حلمتها، وأسمع صوت الحليب وهو يشخب في الإناء، وجدتي تصيح: "إياك أن تقلب الإناء"، ذات يوم وأنا أحلب حلمة النعجة تلقيت دفعة كبيرة في مؤخرتي، وانقلب الإناء، وسقطت على الأرض وهربت النعجة، وألتفتُ، وإذا بكبش كبير ذي قرنين معقوفين يميل برأسه نحو الأرض، ويهمّ بالاندفاع نحوي، أنهض، كالمجنون، أعدو، دفعة أخرى ترميني أرضاً، تضحك جدتي، وهي تقول: "أنت تنافسه في أنثاه"، قلت لها: "ولماذا لا ينطحك أنت؟"، ضحكت وقالت: "لأنني عجوز شائخة"، ومن يومها ما عدت أقترب من نعجة ولا كبش.

هذا الزحام يعجبني، أختلط به، أضيع فيه، أنا هنا واحد في هذا الزحام، ولا كبش ينطحني، أين جدتي لتحذرني، هل سيسرقني لص في هذا الزحام؟ وماذا سيسرق؟ الحقيبة على ظهري، لا يمكن أن يسرقها، ودفتر الشيكات لا يصرف إلا بتوقيعي، لو سرقه وأراد ليصرف ورقة واحدة منه لوقع في الفخ، لا كبش هنا يستطيع أن ينطحني، ولكن لا نعجة أيضاً، ولا جدة تحذرني، أمس، ملأ الفوج السياحي أذني بالتحذيرات، العجائز الثلاث يُردْن أن يصببن

كل الحكمة في رأسي، كلهن زرن مصر من قبل، وعانين من السرقة والغش والخداع والكذب، أفسدن عليّ جولتي في المتحف في اليوم الأول، ولم أستمتع معهن في زيارة قلعة صلاح الدين وجامع محمد علي باشا في اليوم الثاني، حتى إنني لم أستمتع بوجبة الغداء في مطعم فرحات، ولم أتناول سوى صحن صغير من الطحينة مع قليل من الخبز، اليوم أريد أن أتجول وحدي، هذا هو اليوم الرابع، النساء في الفوج السياحي اقترحن تأجيل زيارة خان الخليلي إلى اليوم الأخير، لشراء التحف والهدايا، ولكني قررت أن أزوره اليوم وحدي، سألاقي قدري بنفسي، أخبرتهن بذلك، فانهالت علي النصائح، إحداهن تصيح: "سيكذب عليك سائق، ولاسيما سائق سيارات الأجرة القديمة، عدادها معطل، خذ سيارة أجرة بيضاء جديدة، عداد الأجرة فيها يعمل، أو خذ سيارة من سيارات الأجرة الليموزين العاملة في الفندق"، وثانية تصيح: "سيضلك دليل سياحي، ولاسيما الأدلاء الشباب، الذين يدعون أنهم طلبة جامعيون، اطلب دليلاً رسمياً من مديرية السياحة"، وثالثة تهتف: "سيخدعك مشعوذ، المشعوذون في ساحة الحسين وفي مسجده كثر، حاذر من ألاعيبهم.

إذا كان هذا هو قدري فسأقابله وحدي، بل سأمضي إلى لقائه، نصائح العجائز دفعتني أن أمضي إلى خان الخليلي وحدي، مع سائق بالأمس فقط عرفني عليه الصديق الشامي، ليس من سائقي الفندق، ولا من سائقي سيارات الليموزين، ولا السيارات البيضاء الجديدة ذات العداد الذي لا يمكن أن يخدعك، أريد أن أخوض المغامرة، وأن أتعرض للسرقة والخداع والكذب، أريد أن أسير وحدي، من غير دليل ولا مرشد ولا فوج سياحي، أن تسير وحدك هو الأمتع، أن تختلط في الناس وتضيع بينهم هي السياحة الحق، لا مع فوج من العجائز، ودليل كالراعي يقود القطيع، وهو يصيح بهم، ويحمل علماً أو راية كي لا نضيع، ليتنا نضيع.

تبهره الألوان والثياب والأجساد، وتثيره روائح العطور الممزوجة بروائح البخور والأجساد المتعرقة، "هل الجسد وحده هو الحقيقة مثل هذه

السوق المزدحمة بالأجساد وحاجات الأجساد من ثياب وعطور وأقراط وقلائد وهدايا وأطعمة يختلط بعضها ببعضه مثلما تختلط أجساد الرجال والنساء من مصريين ومصريات وفرنسيين وفرنسيات وأوستراليين وأوستراليات وربما بعض العرب، هل هو الوحيد من إكستر؟ لا شك أن هناك بريطانيين، الإنكليز هم الذين بنوا مصر، واكتشفوا آثارها وعرّفوا العالم بها، على كل حال الأجساد في النهاية وحدها هي الأجساد، لا فرق بين جسد آسيوي أو جسد أوربي، والرغبة هي الرغبة، ولكن الجسد الإفريقي يبدو مختلفاً، بل الشمس هنا تبدو مختلفة.

زاغ بصره وهو يتأمل المناديل المطرزة والعباءات الملونة المزركشة وتماثيل صغيرة لأبي الهول والأهرامات ونفرتيتي ورمسيس وسائر الفراعنة.

ويبلغ الساحة المطلة على جامع الحسين، لا بد من وجبة إفطار قبل زيارة الجامع، ليست بطنه هي وحدها التي تناديه، إنما شباب كثر أمام أبواب المطاعم هم الذين ينادون السائحين، شباب يعملون في المطعم، ويتكلمون الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية، ولغات أخرى، لاشك أن التركية واحدة منها أيضاً وربما الفارسية، أحدهم يوجه شتيمة بالعربية لسائح لأنه لم يستجب لدعوته، السائح يلتفت إليه ويبتسم ساخراً، ويبتسم هو أيضاً بسخرية، السائح على ما يبدو يعرف مثله بعض الكلمات العربية، والشاب المصري يحسبه لا يعرف، كتاب الدليل السياحي عرفه بالكلمات البذيئة التي يمكن أن يسمعها، وتضمن الكتاب النصيحة ألا يردّ، بل أن يبتسم ساخراً، إذا سمع هو أي شتيمة فلن يصبر، سيوجه على الفور لكمة إلى الشاب، أخيراً يستجيب لدعوة شاب لطيف، ويدخل المطعم، يريد "الكُشَري"، كتاب الدليل السياحي نصح له بتناوله من محل "فلفلة" في ميدان "طلعت حرب"، تضمن الكتاب شرحاً وافياً للكُشَري ومكوناته، أرز وشعيرية ومعكرونة وشرائح بصل مقلي وعدس مسلوق وحمص مسلوق وقليل من الحمض والشطة الحارة جداً، "تجنب الشطة الحمراء الحارة"، هكذا جاء وصفها في الكتاب، ولكن كيف

سيكون مذاق هذا المزيج؟ سيتذوقه الآن، في هذا المطعم أمام الحسين، المعرفة في الكتاب، غير التجريب في الواقع.

كل من حوله من السائحين والسائحات، الموائد تغص بهم، يزدردون الطعام بنهم، الأذرع والأجساد والصدور والنهود تكاد تكون عارية، الشمس هنا حقيقة ليست كالشمس هناك في إكستر، هنا تحس بالشمس تلذع جسدك، فتستمتع بالحرارة، بل باللذعة، ولذا من حق السائح أن يعري صدره، ومن حق السائحة أن تكشف عن معظم صدرها، ومن حق المصري رجلاً وامرأة أن يحمي جسده من هذه الشمس التي نحن محرومون منها، ولو كانت شمس تموز، الظل، حتى الظل هنا مختلف، ظلي هنا له كثافة وقوة على الأرض، أحس بظلي، هناك في أكستر في وسط الضباب والغبشة والعتمة لا أكاد أستبينه، الجسد هنا له مذاق آخر ولون آخر، كأنني أول مرة أرى فيها جسد امرأة أو جسد رجل، حتى الطعام تتناوله تحس له طعماً آخر، حقاً "الكُشَري" لذيذ، هو كالجسد، له طعمه ومذاقه ونكهته، حار حاد ساخن لاذع شهي، وهو مع الشطة الحارة أشهى، مثل شفاه سمراء ممتلئة مطلية بالأحمر القاني.

هنا تباشر الحياة، كأنك تعيشها بقوة، كأنما تقضم التراب والهواء كأنك تتّحد بالأشياء تحل في الأكوان، الرائحة هنا فاغمة، الطعم هنا حاد لاذع، ولا بد من الشاي بعد "الكُشري"، الشاي هنا ثقيل مشبع بالسمرة والحمرة والنكهة، كأنني أدخل في سر الأشياء، هذا النادل الشاب يستحق "بقشيشاً" من غير شك، "خذ هذه لك"، حقيقة هنا لا يبخل المرء بالعطاء، يستحقون البذل كله.

في الساحة مقابل المطعم يقترب منه شاب أسمر ناحل يحمل بعض الكتب يكلمه بإنكليزية رشيقة:

ـ هل تريد بعض المساعدة؟؟

الرجل يطرف بعينيه، يتردد، يتذكر كلام الساحرة العجوز، وقبل أن يجيبه، يقول له الشاب:

ـ لا تقلق، أنا لست دليل سياحة، ولن أغدر بك ولن أسرقك، ولا أريد أي شيء، أنا جبريل، متخرج في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة القاهرة، ويسرني فقط أن أتكلم معك بالإنكليزية وأسمعها منك، لأحقق ممارسة حيّة باللغة.

ينظر إليه، بشيء من القلق.

سأجرب، فليكن ماكراً أو كاذباً، بل ليكن لصاً، لن أمكّنه من نفسي، سأتخلص منه عندما أحس منه الخطر.

يرفع الرجل رأسه، يشد صدره، يقول له بقوة وعزم ليؤكد له أنه واثق ومطمئن:

ـ وأنا إدوارد، إدوارد فاجنر، من إكستر بإنكلترة، سنزور الحسين.

الشاب يرد بلطف:

ـ لا، سنزور الأزهر أولاً.

ويمسك الشاب بيد الرجل، يحس الرجل بالضيق والتذمر، ولكنه سرعان ما يستسلم ليده، يحس بها لطيفة ناعمة، لا يمكن أن تكون يد لص أو ماكر.

ـ سنزور الأزهر أولاً، هو هنا على اليمين، من السنة في الدين عندنا أن نبدأ باليمين، سنبدأ هنا بالأزهر، قلعة العلم والعقل والمعرفة والدين.

ويهبطان بضع درجات إلى نفق تحت الشارع، نفق أسطواني قصير، لا يزيد طوله على مئتي متر، يجتازانه في بضع دقائق، ثم يصعدان بضع درجات، وإذا هما أمام الأزهر.

ـ هذا هو الأزهر الشريف الذي ضربه الجنرال كليبر بالمدافع، وهدم جزءاً منه، الأزهر موئل العلم والعلماء، حاصره كليبر، واعتقل العلماء والشيوخ والشباب طلاب العلم، الشيوخ كانوا يعلمون في الأزهر، وهم أنفسهم قادة الثورة ضد كليبر.

أعرف، هو يريد أن يشير إلى الكولونيالية، ولكن نحن لم نضرب الأزهر، الفرنسيون هم الذين ضربوه، نحن ساعدنا مصر على التقدم والبناء، نحن قدمنا للخديوي إسماعيل القروض حتى بنى دار الأوبرا، العرب لا

ينسون الماضي، بل يعيشون فيه، ولا يتطلعون إلى المستقبل، على كل حال ما زلنا نحن هنا، لا تخلو جملة في كلام المصريين من كلمة أو كلمتين إنكليزيتين، حتى عند الباعة والناس العاديين، معظم أسماء المحلات إنكليزية، ومكتوبة بحروفنا: غاليري، فاميلي فود، فيوتشر سكول، ترومف، إن أند أوت ديزاينر، غرين روم، وندر لاند، المساجد وحدها تحمل الأسماء العربية، وقليل من المحلات.

ـ في ظل هذه الأعمدة كان يقعد الشيخ العالم يسند ظهره إلى العمود، ويتحلق أمامه طلاب العلم، هنا حلقة للأدب، وهناك حلقة للرياضيات، وهنالك حلقة للطب، الأزهر ليس مجرد جامع، هو جامع وجامعة، جامعة الأزهر الآن امتداد له.....

الرجل ينزل الحقيبة عن ظهره، يفتحها، يخرج منها كتاباً، يقول للشاب:

ـ شكراً أعرف هذا، قرأت عن الأزهر وتاريخه من إنشائه إلى اليوم قبل مجيئي، قرأت كل شيء عن القاهرة، كل شيء.

ـ أين آلة التصوير لألتقط لك بعض الصور؟.

ـ أوه، شكراً، أنا لا أحمل آلة تصوير، أنا أنفعل بما أرى، أنا أحتفظ بالصور في عقلي في داخلي، أنا أستمتع أكثر، وإذا أردت الصور عثرت عليها في المواقع الرقمية، وفي الدليل المطبوع معي هنا كثير من الصور والشروح.

ويقف ذاهلاً أمام الجدار الخشبي الذي يفصل المصلّى عن باحة الجامع، جدار خشبي مخرّم على شكل أعمدة صغيرة، ومربعات متقاطعة، مزخرف، كأنه ستارة من الدانتيل، يسمح للنور بالتسرب إلى المصلّى رقيقاً هادئاً، يضيء ولا يتعب العين، يحجب وهج الشمس ويمتص الحرارة، فإذا المصلّى في الداخل مضاء من غير أشعة، وهو مشرق من غير ضوء، وهو هادئ في برودة منعشة على الرغم من الوهج والحرارة في الخارج.

ـ هل يمكن أن أقعد؟.

ـ اقعد كما تشاء، ويمكن إذا أردت أن تغسل وجهك ويديك".

ويقعد، يسند ظهره إلى عمود، يغمض عينيه، يرتاح، يحس أنه بحاجة إلى النوم، هنا شيخ جليل وقور، يلف رأسه بعمامة بيضاء، ومن حوله شباب من مصر ومن السودان ومن إسبانيا وطالب من إكستر يستمع إليه، وهو يعطي درساً عن جسم الإنسان، وعن الرحم، وانسداد قناة فالوب بسبب التهاب، ويفتح عينيه ويهم أن يسأل الشاب:"هل عرف أطباؤكم القدامى قناة فالوب؟ وهل درسوا الجهاز التناسلي عند المرأة؟"، ولكنه يسكت، "لا شك في أنهم درسوا كل شيء، حقيقة، لا يعني هذا المبنى مجرد الصلاة، بل يعني العلم، ويعني القتال ضد الفرنسيين، ربما هناك في الساحة نزف شاب أصيب بجراح.

ويخرج من الأزهر، يلتفت إليه، كأنما يود إلقاء نظرة وداع، يقف أمام الباب ذاهلاً، زخرفة أنيقة هادئة، لاشك أن وراءها علماً وهندسة وتقنية.

ـ كيف سنجتاز الشارع لنعود إلى الحسين؟.

ـ لا تقلق، من هذا النفق القصير، الذي دخلناه قبل قليل، سنعود من خلاله.

هو أنبوب فالوب، حيثما ذهبت يلاحقني هذا الأنبوب، أنبوب الحياة والموت.

ـ هل هناك طريقة أخرى للوصول إلى الحسين؟.

ـ نعم، هناك على بعد مئة متر، انظر:هناك جسر حديدي، يمكن أن نصعد فوقه، فنجتاز الشارع، ثم نهبط لندخل ثانية إلى الموسكي.

ـ لا، لا أريد العودة، النفق دائماً هو قدري.

أمام باب جامع الحسين يخلع كل منهما حذاءه.

ـ هل تعرف؟، عندما خلعت حذائي عند جامع الأزهر وأودعته عند الرجل الذي يحفظ الأحذية أحسست في البداية بشيء من التذمر، شعرت بقهر لأنني مرغم على هذا، نحن ليس من عادتنا أن نخلع أحذيتنا، لا أعرف لماذا نحس عندما نخلع الحذاء كأننا مثل الجندي إذا تخلى عن سلاحه، ولكن ما لبثت أن أحسست براحة في قدمي وأصابع قدمي، عندما مشيت فوق البلاط البارد

لفناء الجامع، وعندما دخلت إلى المصلّى شعرت براحة من نوع آخر، شعرت كأني تركت الدنيا والمادة والجسد كله ورائي، نسيت كل شيء، وحين حدثتني عن العلم والعلماء شعرت كأن الأزهر هو دماغ القاهرة أو عقل مصر المفكر، والآن سأخلع حذائي ثانية بكل سرور، وأفكر عندما نخرج من الجامع أن أشتري ما تسمونه النعل.

ـ مستر إدوارد، أرجو أن تلاحظ، نحن، هنا، دخلنا من الطريق إلى مسجد الحسين مباشرة، حيث المُصَلَّى، هذا المسجد أُسِّس حين أسس للصلاة فقط، ولذلك تدخل من الطريق إلى المصلى مباشرة، ويختلف عنه الأزهر، لعلك لاحظت أن الدخول كان من الطريق إلى مدخل، وفي المدخل هناك بهو، ثم هناك مدخل آخر إلى الجامع، لماذا هذا البهو في مدخل الأزهر؟ ولماذا فيه مدخلان؟ لأنك داخل إلى مسجد جامع، هو مدرسة للتعليم ومسجد للصلاة، ولا بد أن تكون المدرسة معزولة عن الطريق، لتوفير الهدوء للطلاب.

ـ ولكنك تقول جامع الحسين ولا تقول دائماً مسجد؟

ـ صدقت، نحن الآن لم نعد نميز بين المسجد والجامع، إلا على أساس الكبر والصغر، نحن الآن نطلق اسم الجامع على الجامع الكبير، الذي تصلى فيه الأوقات كلها، بالإضافة إلى صلاة يوم الجمعة، ونطلق تسمية مسجد على المسجد الصغير الذي لا تصلى فيه صلاة يوم الجمعة، بسبب صغره.

ويدخلان مسجد الحسين، ويصيح الرجل:

ـ أوه، هنا كل شيء مختلف، ماهذا؟ هنا فخامة وبهرجة وأضواء خضراء ورجال كثيرون يصلون ويقرؤون ويتكلمون، الجامع هنا مثل السوق فيه حركة وحياة، ولكن ليس مثل السوق تماماً، مثله، وليس مثله، لا أعرف كيف أعبر، هنا شيء مختلف.

ويمران من بين الأعمدة، يتقدمان نحو ضريح الحسين، يرى الشباك الفضي وأحد الرجال يمسح عليه بيده، ثم يمسح وجهه، يتقدم نحو الباب الفضي المزخرف زخرفة بديعة جداً، ويرى رجلاً آخر يقبل ضلفة الباب،

ويسند إليها جبينه، ثم يرفع يديه بالدعاء، مصابيح خضراء تضيء المكان، ثمة درجة هابطة، مغطاة بالفضة الناصعة.

رجل طويل ناحل، يشبهه، أشقر اللحية، يلف رأسه بمنديل أخضر، يرتدي عباءة خضراء طويلة فضفاضة، يتشح بسيف خشبي أخضر، يتكئ على عصا طويلة معقوفة، يمسح الجدران بيديه، يقبل الباب الفضي، يركع عند العتبة، يسجد على ركبتيه، يميل برأسه عليها، يقبّل العتبة الفضية المتألقة، يلثمها، يطيل السجود فوقها، ثم ينهض.

يدخل الرجل إلى مقر الضريح، يذهل أمام القبر المحاط بجدران من شَبَكٍ فضي عريض مزخرف ومتألق، والناس يلتفون حول الضريح، وهم يلهجون بالصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، ويتمسحون بالشبك الفضي، يمسحون به وجوههم، المكان متألق بالأضواء والسقف قبة مفضّضة تشع فيها مرايا وأضواء، وفي الجانب الآخر من الضريح، وهو معزول عن الجانب الأول بساتر خشبي غير عال، يرى وجوه نسوة يصلين ويرفعن أصواتهن بالأدعية:"يا حسين ردّ لي ولدي" "يا حسين زوجي يهجرني ويسعى لضري بالزواج، امنعه يا حسين"، وتعلو زغردة من جهة النسوة:"تزوجت ابنتي يا حسين، تزوجت ابنتي، الفضل لك، يا حسين"، وتزغرد ثانية.

ـ هيا، لنخرج، لا تكثر من النظر إلى النسوة.

ـ أوه، أنا آسف، لم أكن أقصد.

ويخرجان من غرفة الضريح، يقعدان على السجاد الأخضر في المُصَلّى، يسندان ظهريهما إلى أحد الأعمدة.

ـ أنا سعيد جداً هنا، سرّتني هذه الزيارة، هناك في الأزهر وجدت التاريخ والعقل والعلم، هنا وجدت الحاضر والحياة والحركة، هنا وجدت الإيمان يغمر القلوب.

ويهم الشاب بالكلام، فيقول له الرجل:

ـ أنا أعرف، أنا قرأت عن الإسلام كثيراً قبل مجيئي إلى مصر، قرأت عن الفرق الإسلامية، أعرف أن هذا كله ليس من الإسلام، وهو غير صحيح، قرأت أنه لا يجوز دفن الميت داخل المسجد، وأن المسجد في الإسلام لا يحتاج إلى هذه الزخارف، وقرأت أن الإسلام يرفض التجسيد، ويقوم على التجريد، ولكن الإنسان العادي لا يستوعب هذا، الإنسان العادي يحتاج إلى هذه المظاهر، ومن الطبيعي أن يقوم بهذه الممارسات.

الرجل يمدّ قدميه، يضع الحقيبة عن ظهره.

ـ هل رأيت الرجل في العباءة الخضراء وهو يقبل العتبة ويتقلد السيف الأخضر؟.

ـ نعم، ولكنه ليس...

ـ أعرف رأيك فيه سلفاً، أنا قرأت عن الإسلام ومذاهبه وعن التصوف والطرق الصوفية، أعرف كل شيء، لعله يتبع إحدى الطرق، أو لعله شخص له خصوصية، ليس مهماً، ولكن أود أن أقول إنه يذكرني بمارجرجس بردائه الأخضر وهو فوق جواده الأبيض وبيده رمحه المثلث يحارب به التنين ذا الرؤوس الثلاثة، ولكن أودّ أن أصارحك، أنا لا أتفق معهم، أنا لست متديناً، ولا أذهب إلى الكنيسة إلا قليلاً، ولكن هنا أنا مرتاح، صدقني أتمنى أن أكون مثلهم، أتمنى أن أقبّل العتبات وأن أتمسح بالجدران، هذا شيء ينبع من القلب، هو دليل الصدق مع الذات، هو دليل الحب، أو قل دليل الإيمان، أنا أحتاج إليه، أنا تعبت من العقل والعلم، لا أقول يئست، أقول تعبت، مللت، ضجرت، يداي كلتاهما تعبتا، ظهري نفسه تعب، أنا ارتحت هنا إلى الهدوء والسكون.

يصمت هنيهة، يغمض عينيه، ثم يسأل:

ـ أنا أشتهي أن أنام هنا، أرى أشخاصاً هناك يتمددون على طولهم، هل يمكن أن أتمدد مثلهم وأستلقي؟ اعذرني هل هذا جائز أو مسموح به هنا؟.

ـ يمكنك أن تفعل.

الرجل يسترخي في قعدته، يكاد يتمدد على طوله، ولكن سرعان ما يحمل حقيبته، وينهض.

يخرجان من المسجد، ينتعل حذاءه، يسأله الشاب:

ـ هل تريد شراء نعل؟.

ـ لا، شكراً، هي مجرد فكرة، ليس من الضروري أن يحقق الإنسان كل ما يفكر فيه، أو يتمناه، هذا الحذاء طبي، وهو خاص للسير لمسافات طويلة.

يمران أمام المطاعم، يعودان إلى المنطقة الوسطى بين الأزهر والحسين، يقف السائح، ينظر إلى مئذنة الأزهر:

ـ أحسنت، كان من الضروري حقيقة أن نزور الأزهر أولاً، ثم الحسين، هنا على اليمين العقل والتاريخ والعلم، وهنا على الشمال العواطف والحب والإيمان.

يلتفت إلى وراء، يصيح وهو يضحك:

ـ أوه، وهنا وراءنا الطعام، كأنني طائر جناحاه الأزهر والحسين، وبطنه هي المطاعم، تماماً بطنه هي المطاعم، وتذكرت الآن، هناك وراء ظهري، عند ذيل الطائر، إذا كنت أنا الطائر، محلات لبيع الألبسة الملونة والثياب والأحذية، هي عند الذيل حقيقة.

يحك رأسه بيده، ثم يقول:

ـ أودّ أن أحدثك عن شيء بنفسي وأتمنى أن تشاركني فيه.

ـ ما هو؟.

ـ عند دخولي بباب الخلق لمحت محلاً علق على الباب كوارع، أظنه لبيع الكوارع المطبوخة، أشتهي أن أتناول صحن كوارع، قرأت هنا في الدليل السياحي عن محل في الموسكي أو الحسين يقدم فتة كوارع وأظنه هو المطعم نفسه، وأنا أدعوك لتشاركني في تناول فتة الكوارع، أنا سأدفع عنك.

ويرد الشاب:

ـ أشكرك، أنا لا أحب الكوارع، أنا أستأذنك الآن في الانصراف، هنا التقينا، وهنا أودعك، لا بد أن أنصرف، هل تذكر الشاعر فيرجيل عندما صاحب دانتي في الفردوس، وحين وصل به إلى السماء الرابعة، هناك توقف واستأذنه في العودة، وأنا هنا أستأذنك، لا أستطيع أن أهبط معك إلى نهاية الموسكي حيث تباع فتة الكوارع.

أوه، أعرف "دانتي"، قرأتُه في المرحلة الثانوية، من قديم الزمان، حبيبته "بياتريشا" قادت خطاه إلى السماوات العلى، حيث وردة النور المتفتحة، وأنا من سيقود خطاي إلى نهاية الموسكي لتناول فتة الكوارع؟ زوجتي "فيث" تكرهها، وتكره القاهرة، لا أعرف لماذا؟ رفضت المجيء معي إلى القاهرة، لا تريد أن تصحبني في رحلة إلى الماضي والمتحف والتاريخ، قالت لي: "مصر كلها متحف كبير، أنا لا أريد العيش في الماضي"، اختارت الذهاب إلى شرم الشيخ، هي الآن هناك تغوص في مياه البحر الأحمر، لها العذر، هذه هي هوايتها، بل هي حرفتها، وهي المختصة بعلم البحار، ولاسيما الشعب المرجانية، وهي ابنة ليفربول، وأبوها صياد، لها الحق كل الحق في أن تغوص اليوم في أعماق البحر، وأنا لي الحق في أن أطفو على سطح الأرض، وأنا أمضي حياتي كلها بالغوص في أنبوب فالوب، ولها العذر أيضاً في رفضها تناول الكوارع، فهي ابنة البحر، تحب الأسماك، هي الآن من غير شك تتناول الأسماك المشوية، لا تلذ لها الكوارع، "فيث"، "فيث"، ليتك معي الآن.

يمد الرجل يده إلى حقيبته ينزلها عن ظهره، يخرج كتاباً:

ـ اسمح لي أن أقدم لك هدية، تبقى ذكرى، هي ملحمة الأوديسة، أحبها كثيراً، كلما سافرت حملتها معي لأستمتع بقراءتها، أحب إخلاص بنيلوب، ووفاء أوديسيوس لها ولموطنه إيتاكا، أنا على يقين من أنك تعرفها، ولكن هذه ترجمة جديدة عن الإغريقية مباشرة وبلغة شعرية، أرجو قبولها.

ـ أشكرك، أعرفها، وحصلت عليها من الشابكة، وصدّقني، سبقتك إلى التفكير في تقديم هدية لك، فكّرت في شراء تمثال صغير لرأس فرعوني، أو بُرْدِيَّة عليها رسوم فرعونية، ولكن ذكرت كلامك على التجريد والتجسيد، وعلى آلة التصوير والصور، قلت لنفسي: لتبق الهدية معنوية مجردة، هي صورة في العقل في الروح ولا ضرورة للمادي المجسّد، وأنا أقول لك لتكن: الهدية مني إليك ومنك إليّ هي ذكرى هذا اللقاء الروحي الثقافي الجميل بعيداً عن أي تجسيد.

ـ أنا أدعوك إلى العشاء إذن، اليوم في التاسعة مساء في غراند حياة؟.

ـ أشكر لك دعوتك، ولكن أعتذر عن قبولها، هذه، صدّقني، أول مرة أحاول فيها التعرف إلى سائح، لعلنا نلتقي في إنكلترة، أنا أطمح إلى السفر إلى إنكلترة، وخاصة لندن، للتخصص في إنتاج أفلام الشخصيات الافتراضية، أنا هنا أتدرب على صنع هذه الأفلام.

ـ هل تصنع شخصيات افتراضية أم أماكن افتراضية.

ـ أنا أصنع شخصيات افتراضية، المكان عندي واقعي، لأنني لم أسافر ولا أعرف غير مصر، ولكن هنا أرى شخصيات كثيرة، ولو عاش شكسبير في هذا العصر لقال: المكان وحده هو الحقيقي، وما نحن إلا شخصيات افتراضية.

ـ آه، ولذلك كلمتني، وصاحبتني، تريد أن تصنع مني شخصية افتراضية؟؟.

ـ لا، ما فكرت في هذا، كنت فقط أريد التكلم معك بالإنكليزية والاستماع إليك، ولكن أنت أوحيت لي الآن ببناء شخصية افتراضية، طولك، والانحناءة البسيطة في ظهرك، ولحيتك الشقراء الخفيفة، وشعرك المتطاير، كل ذلك يوحي بصنع شخصية افتراضية، كتفاك عريضتان، كدت أحسبك ضابطاً في الجيش، أو ملاكماً، ولكن أناملك وأنت تصافحني ناعمة، ونظارتك الطبية

سميكة، لا توحيان بأنك ملاكم، أو ضابط في الجيش، ولا يمكن أن تكون عازف بيانو، لعلك طبيب أسنان؟.

ـ أنا طبيب جراح، سأعطيك عنواني في أكستر، وإن لم يكن فيها الاختصاص الذي ترغب فيه، في لندن معاهد كثيرة مختصة بالأفلام الافتراضية، يمكن أن تزورني في أكستر على كل حال.

ويمد له يده ببطاقة تحمل اسمه، الشاب يعتذر:

ـ لا، لا أريد أي عنوان، أو بطاقة، شكراً دع ذلك اللقاء للأيام، للمصادفة، والآن أودّعك.

ويمد إليه يده يصافحه بسرعة، ثم يحاول المضي، الرجل يشد على يده بقوة، يمسك بها:

ـ أود أن أعترف لك، بلغت الستين، أنا جئت هنا إلى الشرق لأعيش هذا الجو، أنا مختص بأنبوب فالوب، أنا أجريت خلال الثلاثين عاماً الماضية من حياتي آلاف عمليات فتح القناة أو إزالة ورم منها أو إغلاقها، حتى شعرت أنني أتدخل في الطبيعة، أو قل أتدخل في خلق الله، مللت، ولكن أبرر ذلك بأنني أحقق رغبة المرأة، وأدخل السرور إلى قلبها بمساعدتها على الإنجاب، أو بمساعدتها على التوقف عن الإنجاب، ولو مؤقتاً، ولكن صدقني ما أجريت أبداً عملية إزالة للمبيضين أو أحدهما، وما أجريت أبداً عملية إجهاض، ولكن مع ذلك كله أحس أنني أتدخل في الطبيعة، القلق ينتابني، أنا جئت إلى هنا لأرتاح، ولكني ما أزال أحس بالقلق، التدخل في الطبيعة يؤلمني يا جبريل".

الشاب يهمس له:

ـ اطمئن، أنت رجل مؤمن، أنا واثق من ذلك، لا تقلق.

هذا ماتنكره عليَ زوجتي دائماً، تتهمني دائماً بالتقصير في الذهاب إلى الكنيسة، ليسامحك الرب يا "فيث"، ليتك الآن معي، لتسمعي كلام هذا الشاب، إنه يطمئنني، أنت تقولين البحر هو الأجمل، وأنا أقول لا، إكستر هي الأجمل، ومصر هي الأجمل، تقولين من البحر جئنا وإليه نعود، هذا رأيك، وأنا أقول

من إكستر جئنا وإليها نعود، أو ربما إلى مصر، مصر في الكتاب غير مصر في الواقع، ليتك الآن معي لتسمعي كلام هذا الشاب المصري، ليتك كنت أمس معي لتتناولي طعام الصديق الشامي، وتتعرفي إلى زوجته.

ويغير الرجل من لهجته، يقول للشاب، مؤكداً:

ـ أرجوك، اقبل دعوتي إلى العشاء الليلة في غراند حياة.

ـ أنا آسف، اعذرني.

الشاب يسحب يده من يد الرجل، ثم يغيب في الزحام، يحاول الرجل البحث عنه يمشي وراءه بضع خطوات فلا يجده، أين ذهب ؟ من أين جاء؟ هل جاء من الأزهر؟ هل خرج من الحسين؟ هل عاد إليه؟

تعجبني هذه الرومنسية، هنا السحر والخيال، قد نلتقي في أكستر أو في لندن، أو في أي مكان في العالم، من غير موعد، ولا هاتف ولا بطاقة تعارف، ربما، نحن أرهقتنا الأعراف والتقاليد والمواعيد الدقيقة وبطاقات التعارف.

يدخل في الموسكي، يمر ثانية بمحلات العطور والألبسة والأحذية والهدايا، يخترق الزحام، يمر بالأجساد، يحتك بها، يزحمها، ولكنه لا يكاد يحس لها أثراً في نفسه، بل يريد أن يجتازها سريعاً، كأنه يريد أن يقطع الطريق كله بلحظة، ليتخلص من هذا الركام، يحس كأنه شاخ، ما عادت نفسه تشتهي أي شيء، ركبتاه خارتا، تعبتا من التطواف والتجوال، نال منه الوهن، كأنه في التسعين لا في الستين.

يرفع الجوال ويتصل:

عوض؟، مرحباً، أنا إدوارد، أرجو أن أراك بعد دقائق في باب الخلق.

يصل إلى نهاية الموسكي، يلمح الكوارع المعلقة أمام باب المحل، يرى قِدْراً نحاسية كبيرة، ويشاهد بخاراً يتصاعد منها، يشم روائح دهن، يتوقف هنيهة، صاحب المحل يناديه، يضحك وهو يسمعه يناديه بإنكليزية ركيكة، يلتفت عن المحل، ويمضي، يصل إلى باب الخلق، يقف حيث أنزله السائق، ولكن أين هو؟ ثمة سيارات كثيرة؟ كلها سيارات أجرة، بيضاء وسوداء؟ هل

سيتأخر السائق؟ هل سيحضر، لقد غدر بي، صدقت العجوز الساحرة، الآن عرفت لماذا قال لي اترك الحقيبة معي في السيارة، لا تتعب نفسك بحملها، أخطأت إذ أعطيته أجرة الذهاب والإياب سلفاً.

ـ إدوارد، مستر إدوارد.

ويلتفت، وإذا بالسائق يركض نحوه من رصيف مقابل، أمام مقهى.

ـ تفضل، تفضل، السيارة هنا.

يفتح الباب، يدفع حقيبته، يجد الحزام الذي قطعه على المقعد الخلفي للسيارة، يلتقطه، يربطه إلى حقيبته.

ـ أنت تذهب في غير الطريق التي جئنا منها.

ـ لا تقلق، لا يمكن أن نعود من حيث جئنا، هذه هي الطريق التي يجب أن نسلكها، هذا هو اتجاه العودة الذي لا بد منه، سأمر بك بالأزهر ثم الحسين، ونجتاز الدرّاسة، ثم ندخل في نفق صلاح سالم، أريدك أن تقوم بجولة سريعة في القاهرة، لا تقلق، أنت أعطيتني أجرتي خمسين جنيهاً، يجب أن أطوف بك في بعض أحياء القاهرة، حتى تكون أجرتي حلالاً، اطمئن، لن آخذ منك أي قرش زيادة.

وتدخل السيارة في نفق صلاح سالم، سبع دقائق أو ثمان، والسيارة تنطلق بسرعة ثمانين كيلو متراً.

هل هو أنبوب فالوب أيضاً، هو قدري دائماً، إلى أين سيصل بي؟.

ـ عوض، إلى أين ينتهي هذا النفق؟.

ويصيح السائق وهو يضحك:

ـ إلى القرافة، إلى مقابر القاهرة القديمة، إلى الموت.

ولماذا الموت؟ نفق فالوب يقود إلى الحياة لا الموت، ولكن، حقيقة، إذا لم تلقح البويضة قادها إلى الموت.

وتخرج السيارة من النفق، يرى بيوتاً مهجورة، شاحبة، كئيبة، يعلوها الغبار، ويسأل:

ـ ما هذا الحي؟.

ـ القرافة، المقابر، حي الأحياء والأموات، قلت لك: النفق ينتهي بنا إلى الموت.

ـ لا أرى المقابر.

ـ القرافة عندنا أحواش، حوش لصق حوش، مثل مدينة الأحياء، وفي الحوش قبور وفي القبور أموات، وبين القبور ومعها يعيش أحياء، هذه هي الدنيا، أحياء وأموات، البيوت التي يعيش فيها الناس في المدن فيها أحياء وأموات، هي نفسها مقابر، أنا وأنت كلنا نسكن في المقابر، حتى هذه السيارة وهي تتحرك، هل لاحظت، لونها أسود، وصاج الحديد فوق العجلات الأربع أبيض، العجلات وحدها هي الحياة، لأنها تدور، وعدا ذلك، فالسيارة هي مجرد حديد، مجرد جثة، هي موت.

ويهدئ من سرعة السيارة ثم يلتفت إليه ليسأله:

ـ ما رأيك، هل تريد الدخول إلى القرافة؟.

ـ لا، أرجوك، أريد العودة إلى غراند حياة.

ويضحك السائق، ويعلق:

ـ والله أنت لا تعرف أي شيء، صدقني الحياة هنا أجمل من الحياة هناك، هناك أنتم أموات، نعم، اسمه غراند حياة، ولكن لا حياة فيه، الحياة هنا، انظر، هنا الحياة.

ـ أنت سائق؟ أم أنت فيلسوف؟.

ـ السواقة فلسفة، أنا كل يوم من الممكن أن أحمل راكباً إلى المطار، يغادر القاهرة، يودّع الدنيا، يغادرها، يطير إلى السماء، أنا كل يوم أرى ساعة الوداع، ولكن أنا لا أحمل كل يوم راكباً مثلك من أمام فندق غراند حياة، كما تسمونه، وأمضي به إلى الحسين، ثم يقول لي: سأرجع معك من نفس المكان، هذه فرصة لي، هل تعرف أني لم أغادر باب الخلق، هذه فرصة، أنا ركنت السيارة إلى جانب الرصيف، ودخلت أول الموسكي، وهناك عند بائع الكوارع

تناولت صحن فتة بالكوارع بالطحينة مع الخبز المقلي بالزيت، وبعدها قعدت في المقهى على الرصيف، وشربت كأس شاي أسود، ودخّنت حجر "معسِّل"، هذه الحياة، وإذا لم تصدق فتذكر حزام الحقيبة المقطوع، رجعت فوجدته على المقعد الخلفي، أنا أمضيت أجمل وقت في انتظارك، ولم أعمل طوال الساعة الماضية، جولتك لم تدم أكثر من ساعة، ليت جولتك طالت أكثر.

يحس الرجل بالضجر.

ـ أين نحن الآن؟ ما هذا الزحام الشديد؟ متى سنصل إلى غراند حياة؟.

ـ أنا والله نفسي ما عدت أعرف؟ يبدو لي أننا تهنا عن غراند حياة، أضعنا الطريق، مصر أم الدنيا، ومن الطبيعي أن تضيع في مصر، من الطبيعي ألا تعرف طريقك، نحن هنا أكثر من ثلاثين مليون، هل تعرف مدينة سكانها أكثر من ثلاثين مليون، هذه هي القاهرة، هي الدنيا، والدنيا واسعة، لو تناولت مثلي صحن فتة الكوارع ودخنت حجر معسل كنت شعرت بحلاوة الدنيا، أنا نفسي أتفسح الآن مثلك في مصر، مصر للمصريين أيضاً، وليست للسواح الأجانب فقط، ومن حقنا نحن المصريين أن نتفسح مثلكم في القاهرة، نضيع في شوارعها، نتوه، لا نعرف الطريق، جميل أن تتوه ولا تعرف الطريق.

ويفتح السائق زجاج السيارة، يمد رأسه من النافذة، يسأل شرطي المرور:

ـ أين طريق العودة إلى غراند حياة؟.

وينعطف في شارع فرعي.

ـ أنا في الأربعين، منذ أكثر من عشرين عاماً، منذ أن كنت في الثامنة عشرة، وأنا أعمل سائق سيارة أجرة، ولكن مع ذلك حتى الآن لا أستطيع القول إني أعرف القاهرة، كما قلت لك، هي مثل الدنيا، لا يمكن أن تعرفها كلها.

السيارة تخوض في تيار السيارات الهادئ البطيء، كأنها غارقة في الطوفان، والسيل يحملها مع ركام من الأشجار والموتى والغرقى والحطام والسيارات المنقلبة المحطمة، طوفان هادئ يسير الهوينى، لا الجسور تنفع ولا

الأنفاق، والبراكين الهادرة في معامل السيارات عندنا في الغرب ترمي بحممها، ما حاجة مصر إلى هذه السيارات؟

يلتفت إليه السائق:

ـ هل مللت من حديثي؟ لماذا أنت صامت؟ بماذا تفكر؟.

ـ لا شيء.

أنت لا تعرف بماذا أفكر، أنا قلق، نعم، الحقيقة، أنا أتمنى أن أبقى في مصر، أربعة أيام فقط مرت، اليوم الأول لا يحتسب، كان يوم سفر، وصلت إلى القاهرة في السادسة من مساء يوم السبت، وبقيت مع زوجتي في المطار إلى الثامنة والنصف، حتى أقلعت طائرتها إلى شرم الشيخ، ولم أصل إلى الفندق حتى بعد التاسعة، اليوم الأول لا يحتسب، هي أيام أربعة فقط، لا أعرف كيف مرت، غداً، الجمعة، في الساعة الرابعة ستقلع طائرتي، عليّ أن أغادر، غداً سأزور الأهرامات مع الفوج، ومنها أنطلق إلى المطار مباشرة، رسالة مستعجلة من إكستر تطلب مني قطع الإجازة والعودة، زوجتي ستبقى، والفوج السياحي سيبقى، حالات مستعجلة في المستشفى تنتظرني، يريدون أن أرجع لإنقاذ قناة الحياة، يظنون أني أنا مَن يحفظ الحياة، هذه هي المشكلة التي تؤرقني، ليتني أتقاعد من العمل مبكراً قبل سن التقاعد، وأعود إلى هنا، إلى القاهرة، صديقي جوزيف كان أجرأ مني، تقاعد قبل سن التقاعد، هو الآخر وصل إلى حالة تشبه حالتي، قال: "عالجت مئات الحالات، حتى ظن الناس أن عيادتي النفسية هي مصدر شفائهم، ظنوا أني سبب شفائهم"، جوزيف خشي أن يحسبوه المسيح، وأن يظنوا أنه المخلّص، هو رجل مؤمن، ترك المعالجة النفسية، ولجأ إلى منتجع جبلي ليعيش فيه"، وتقلقني أيضاً القاهرة، الأيام الأربعة التي أمضيتها هنا لم تكن كافية، ما عرفت فيها كيف أعيش؟ ماذا أرى؟ ماذا أزور؟ ماذا آخذ؟ ماذا أترك؟ أربعة أيام، أو خمسة، لم تكن كافية، ولكن هكذا هي الدنيا، كما تقول أنت أيها السائق، حكمتك بالغة.

ـ لا تقلق، الأجرة هي نفسها، أنا قبضتها منك، أنا أعمل الآن بمزاجي، أنا مسرور، شاركني سروري، اتفرج معي على القاهرة، سنصل إلى غراند حياة، لن آخذ منك أي قرش زيادة، أنت استمتع فقط بالقاهرة، مصر أم الدنيا، لو بقيت فيها العمر كله لن تشبع منها، سامحني أنا أثرثر كثيراً.

أمام باب الفندق، يمدّ الرجل له يده بمئة جنيه، السائق يغلق كلتا قبضتيه على مقود السيارة، يتشبث بالمقود، يقول له:

ـ أنا أود أن أعيد إليك الخمسين جنيه، وفوقها مئة زيادة، أنت أعطيتني فرصة لأعيش، لأتفسح في مصر، لأرى الدنيا، أتمنى أن تعيش أجمل أيامك في مصر، قبل أن تغادر الدنيا، أنا لن أقبل منك أي قرش.

وينطلق بسيارته، مبتعداً عنه.

الرجل ما يزال على الرصيف أمام باب الفندق، يتابع السائق بعينيه، ينظر إليه في المرآة الجانبية، يرى وجهه الأسمر المدوّر، السائق يمد يده من نافذة السيارة ملوِّحاً، الرجل يلوّح له بيده. يلتفت داخلاً إلى الفندق، والحقيبة الجلدية على ظهره، وهو في المصعد، يضع يده على الجوال.

هل أطلب من عوض أن يحضر لي قليلاً من فتة الكوارع؟ أو رداء أخضر؟ أو نعلاً رقيقاً، الحقيقة ما عدت أعرف ماذا سأفعل في مصر، وماذا سأحمل معي منها وأنا أغادرها؟ هذه الحياة، هذه هي الدنيا، ومصر أم الدنيا، كما قال السائق، زوجتي "فيث" لا تعرف، ليتها معي الآن، ليس البحر وحده كل شيء، هو جميل، ولكن مصر، وأكستر أجمل، هل أتصل بإكستر، وأعتذر إلى مدير المستشفى وأخبره أنني لن أقطع إجازتي؟ طلابي هناك يمكن أن يحلوا محلي، هم في الحقيقة أفضل منّي.

في مطعم الفندق، على مائدة الغداء، يلتقي مع أعضاء الفوج السياحي، العجائز الثلاث يسألنه عن جولته، يحدثهن بالتفصيل عن عوض السائق، عن جبريل الدليل الشاب، عن مارجرجس بزيّه الأخضر، يضحكن ملء أفواههن، وتنهال عليه التعليقات:

ـ لا يمكن أن نصدّق هذا.
ـ هذه قصص من الخيال.
ـ أنت متأثر بأوديسيوس، رأيتك في الطائرة، وأنت تقرأ في الأوديسة.
ـ هذه شخصيات افتراضية.

ساعة ونصف ...حول هرم خوفو وأبي الهول

خفّفِ الوَطْءَ....
المعري

حوالي العاشرة هبط الفوج السياحي من الحافلة الأنيقة والمكيفة التي أقلّتهم من "غراند حياة" ودخلت بهم إلى قرب هرم خفرع، ثلاث نسوة عجائز، واثنا عشر رجلاً، بين الخمسين والسبعين، وفيهم إدوارد، نظر للمرة الثانية إلى ساعة يده، هي العاشرة وبضع دقائق.

يوم الجمعة، هو اليوم الخامس، هو اليوم الأخير، يجب أن يكون في المطار عند الساعة الثانية، طائرته ستقلع في الرابعة، يحتاج إلى ساعة ونصف كي يصل إلى المطار، ومن أجل الزحام يجب أن ينطلق من الهرم في الثانية عشرة، أمامه ساعتان فقط، لاشك هي كافية لزيارة أبي الهول والأهرامات، كل شيء محتوم بحساب، لا بد من الدقة في العمل، سيتصل حتماً بعوض، ليوصله إلى المطار، لا بد من عوض، ويتصل به، يطلب منه أن يكون عند الساعة الثانية عشرة عند البوابة الغربية للأهرامات.

ليت جبريل يكون معه الآن.

الدليل السياحي اشترى التذاكر، ودخلت الحافلة من البوابة الغربية إلى الهضبة، حيث تنهض الأهرامات شامخة.

لا يروق له أن يكون مع الفوج، كان يتمنى لو زار الهرم وحده، أو بصحبة جبريل. لم يأخذ رقم هاتف جبريل ولا عنوانه، حتى جبريل نفسه رفض أن يأخذ رقم هاتفه، قال له:"اترك لقاءنا للمصادفة"، لا شيء يخضع للمصادفة، كل شيء محتوم بقدر وحساب، عندما تنضج البويضة ولا تلقح فلابد من أن تنفجر وتخرج عبر قناة فالوب.

كان يتمنى لو دخل من البوابة الشرقية، ليرى أبا الهول أولاً، كي لا تكون الشمس في مواجهة عينيه، نظارة "ري بان" لم تعد تنفع، وضع القبعة البيضاء على رأسه، وأسدل الواقية العريضة فوق جبينه ليمتد ظلها فوق عينيه.

ـ احترس من اللصوص

كفى نصحاً أيتها العجوز، مللت منك ومن نصائحك.

أنا هنا أكتوي برمل الصحراء وبالشمس الحارقة، وأنت هناك، فيث، أيتها الزوجة المؤمنة، في أعماق البحر تنعمين بالنداوة والبلل، ليت جلدك يتشقق الآن تحت شمس تموز لتعرفي حقيقة الجسد، ومعنى المسام، وتشمي رائحة الإنسان، الماء أصل الحياة، نعم، ولكن لا بد من التراب، ولا بد من هذه النار الكاوية، ولا بد من هذا الهواء اللافح، والوهج الساخن، هنا يعاد خلقي وتكويني، كأني أعود إلى أربعة آلاف سنة، بل إلى أربعين ألف سنة، أنا أعتقد أن عمر الأهرامات أكثر من أربعين ألف سنة لا أربعة آلاف.

صخور ومنعرجات وطرق صاعدة وأخرى هابطة وأبراج قديمة وحجارة تكاد تتداعى وأنا أصعد وأهبط والسماء معتمة وثمة قبور سوداء وخفافيش وتماثيل راعبة وأشباح ضبابية أكاد أتعثر وأسقط ثم فجأة أطل على بحيرة ماؤها يتدفق ويسيل في نهر لا بد أن أجتازه وكيف لي اجتيازه ولكن أجدني وفي يدي عصفور أسود أو ملون بألوان مختلفة منقاره حاد وهو ينقر في إصبعي، وأصحو من نومي، أنهض، يا للحلم المزعج، الآن تذكرته، هل هو هذه الصحراء والأهرامات؟ لا، لا، الحلم لا علاقة له بهذه الصحراء المشرقة الجميلة، والعصفور؟ لا أعرف، أحببته وهو في يدي، على الرغم من ألوانه الداكنة المختلفة، ولكنه آلمني، استيقظت على نقره في إصبعي، عليّ أن أنسى الحلم.

فور إقبال الحافلة على الجيزة ورؤيتي الهرم الأكبر من بعيد، قلت لا بد أن تكون الأهرامات أكبر مما قرأت عنها. ليس الهرم كومة حجارة كما قال لي

مرة مساعدي طبيب التخدير جورج، وقد زار القاهرة قبل عامين، هي كومة حجارة، هكذا قال لي، لا، هي رسوخ ثابت للإنسان في المكان والزمان، وثبات كثبات كل حجر فوق حجر آخر، من غير ملاط بينهما، هنا لا يمكن أن تدخل شفرة رقيقة بين حجرين، هذه هي دقة الإبداع، وروعة التصميم، هنا تحس أن الإنسان حقيقة عظيم، تمكّن من الأرض، وعرف الجهات الست لا الأربع، وتشبث بالأرض، ثم ارتفع نحو العلاء ارتفاعاً متساوياً من الجهات الأربع، كأنما يريد أن ينجو من الأرض، ويرقى نحو الأعلى، ليغزو الفضاء، متخلصاً عند القمة من الجسد والحجر والأرض، ليعانق الريح، ويدخل في الفضاء بنقطة هي الصفر، من تلاقي الأربع، ويصبح المطلق، وأظنّه في القمة قد فعل، هناك في القمة يتخلص من الماء الغارقة فيه زوجتي، ومن التراب الذي هو أنا، ومن النار التي تكويني، ومن الهواء الذي يشويني، ليست الأهرامات كتلة أبداً، إنما هي حضور وخلاص، هي ثبات وتحليق، هي وجود راسخ في الأرض، وانطلاق حرٌّ في الفضاء، هي الأربع في الأرض والصفر في السماء، هنا يوجد الجسد وهنا ينعدم، وهنا توجد الكتلة وهنا تذوب، وهنا يوجد الزمن وهنا يتلاشى، لا معنى لأن يكون عمرها أربعة أو أربعين، فهي هنا الزمن كله يمثل في كتلة، وينعدم في كتلة، وفي هذا الوجود من الحجارة المليون هي البشرية في حضورها وفي غيابها، في تراصها وتراكمها، في بنائها الذي يسمو نحو الأعلى، هي قصائد الأرض للسماء، هي أنظار تتطلع نحو النجوم، وأيد تمتد نحو الأعلى، هي انعتاق نحو الحرية والخلاص، إذا كان تمثال الحرية يقول هذا صراحة فهي هنا تعزفه لحناً، وإذا كان برج إيفل يرسل صوته عالياً فهي هنا تعزف لحناً هادئاً يسمو نحو الأعلى، هي دفعة رشيقة من راقصة باليه في لوحات ديجاس، لتنطلق في حركة لا نهائية، على الرغم من الثبات، وهي بسمة الموناليزا، وبضاضة يدها الناعمة، على الرغم من خشونة الأحجار وعظمتها وثقلها، هنا البشرية كلها في صعودها نحو الأعلى.

أعضاء الفوج السياحي والنساء العجائز الثلاث يثرثرون.
ـ لماذا أتعبوا أنفسهم في بناء هذه الأهرامات؟.
ـ لكي تكون مقابر لهم.
ـ لا يستحق الموتى هذه القبور؟.
ـ أرادوا حفظ أجسادهم، كي تعيش في العالم الآخر.
ـ من المؤسف أنهم سخروا آلاف العبيد في بنائها.
ـ كانوا لا يطعمونهم سوى البصل.
ـ هذه فكرة غير صحيحة، رأيناها في أفلام هوليود، لا يعقل أن يبنيها العبيد.
ـ أنا قرأت أنه جاء رجال من الفضاء فبنوا الأهرامات.
ـ بل بناها أقوام كانوا من العماليق.
ـ بل بنوها بالسحر، كان أحدهم ينظر بعينيه نحو تلك الكتلة الحجرية، فيرفعها بنظرته إلى الأعلى، فتنزل في مكانها.
ـ لا يعقل يامرجريت، انظري إلى هذه القطعة من الحجر، هي أعلى مني، ولا تستطيع كلتا يدي الإحاطة بها.
ـ صدقت ياديانا، ربما تزن عشرة أطنان.
ـ وكيف نقلوها إلى هنا؟ وكيف رفعوها؟
ـ يقال إنها من رمل وحجارة صغيرة جبلت بماء النيل وصبت في قوالب هنا، وجفت تحت أشعة الشمس.
ـ لا، لا أصدق، هي حجارة من صخور، لا أعرف نوعها.
ـ أنا قرأت انهم كانوا يصنعون طريقاً صاعدة من الرمال، يدفعون الحجر فوقها حتى يصل إلى موضعه في الأعلى، ثم يزيدون بالرمال ارتفاع تلك الطريق، وهكذا، إلى أن وصلوا إلى القمة، ثم بعد ذلك أزالوا أكوام الرمال.
ـ لاشك بناها عمال مصريون، وفنيون مهرة.

ـ أنا قرأت عن طعامهم، كان الأسماك، كي تتحمل أجسادهم العمل الشاق، وكان الأطباء يسهرون على صحتهم.

ـ من أين كانوا يأتون بالأسماك؟

ـ النيل منهم قريب، مجراه قديماً قريب من الأهرامات، ثم غير مجراه، وابتعد عن الأهرامات، كل الأنهار في العالم تغير دائماً مجراها، ولا سيما قبل أن تبنى عليها السدود.

ـ هنا إلى جوار خوفو قبر طبيب، تحت هرم صغير.

ـ الدافع الديني كان وراءها، بناها أفراد الشعب لأنهم كانوا يعبدون الفرعون ويرونه ابن الإله، فر، تعني ابن، وعون، هو الإله الكبير الذي يعين، ففرعون هو ابن الإله.

ـ هناك في باطنها دفنوا كنوزهم.

ـ لا، بل هي فارغة، مجرد ممرات، لا يعرف إلى أين تقود.

ـ هي ممرات للتهوية.

ـ بعض الممرات يقود إلى فتحات تتوجه نحو النجوم بدقة متناهية.

ـ هي أسرار ماتزال لغزاً.

ـ أنا متأكدة أنها بنيت لتكون قبوراً للفراعنة، القبر عندهم ليس نهاية العالم، بل هو بوابة إلى العالم الاخر، منه تبدأ الرحلة، ولذلك لا بد أن تدفن مع الفرعون الأطعمة والأدوات التي كان يستخدمها في حياته، وفي بعض الحالات كان يقتل بعض حراسه ويدفنون معه.

الدليل يصغي إلى تعليقات الفوج ولا يعلق، ثم يتكلم بهدوء:

ـ هذا هرم خوفو، ارتفاعه 136 متراً، طول كل ضلع عند القاعدة 230 متراً، مساحته 13 فداناً، بعض حجارته يبلغ وزنه ثمانية أطنان، استغرق بناؤه عشرين عاماً، يظن أن الأهرامات بنيت لتكون قبوراً للفراعنة.

جوقة الغربان تنقر في رأسي، معاول تطرق في نحاس، ليتها تصمت وتتأمل، ليتها تكتفي بالتقاط الصور ولا تعلق، هي كومة حجارة وكفى، كما قال جورج طبيب التخدير.

ليست قبوراً، ولا كومة حجارة، بل هي سيمفونية الزمان والمكان والإنسان، ثلاثية الإيقاع، صاخبة النغم، أقوى من سيمفونية القدر لبيتهوفن، هي سيمفونية التلاحم بين والإنسان والمكان والزمان والتوافق والتناغم، لا الصراع ولا التحدي، هي تقول هنا الإنسان في توافقه مع الزمان والمكان، في اتحاد هذه الأقانيم الثلاثة توازن الوجود وانسجم، هي الأرض تنادي السماء وتناجيها وتهمس لها ليل نهار.

وهذا هو أبو الهول يحرسها، متوجهاً بأنظاره نحو الشرق، ينتظر الانبعاث الدائم للحياة، يولي ظهره إلى الغرب، واثقاً من شمس جديدة تسطع كل يوم، لتصنع حياة جديدة.

هاهنا قبر لا بد من زيارته، يرجح أن يكون قبر طبيب خوفو الخاص.

ويدخل الفوج قصراً صغيراً، كأنه الرحم، حقيقة هو الرحم، وهنا ممر ضيق ودرجات منحدرة، لا بد من الهبوط فيها، هي قناة فالوب حقيقة، آه، وهذا هو القبر، هو المبيض، ناووس حجري ضخم، وفي داخله كانت ترقد الجثة، هنا ترقد البويضة، هنا الحياة، أنتم لا تدركون معنى هذا، هذا ليس بقبر، هو رحم جديد، من أجل ولادة جديدة، وحياة جديدة، مختلفة، وهنا تعالوا انظروا، معبد، وهذا ما يشبه الباب المغلق، أمامه يقعد المتعبد، هو مجرد واجهة حجرية، مغلقة، يتوسطها مستطيل غائر في الحجر، على جانبيه مستطيلان بارزان قليلاً، وفي أعلى المستطيل الغائر أسطوانة حجرية بارزة بشكل أفقي تصل بين المستطيلين البارزين، وكأنها تظلل المستطيل الغائر في الحجر، وتنظر إليها فتحس كأنها قابلة للدوران مثل بكرة، هذا ما يشبه الباب، يقعد أمامه المتعبد، ليصلي، لا أيها الدليل، ليس ما يشبه الباب، بل هو باب لا بد أن ينفتح أمام من له قلب ومن يملك الروح ويهب ذاته له ويتأمله بروحه،

إذا تأملته حق التأمل ونذرت له ذاتك كلها انفتح الباب ورأيت ما لا يرى، أنت لا تعرف قناة فالوب، ولا تعرف سر الحياة، هنا الحياة، لا الموت.

وأنا طفل رأيت في الحلم مثل هذا المكان، قاعة كبيرة، وأروقة، وأعمدة، وجثمان مسجى، وناووس حجري، وثمة ممرات ضيقة، أدخل فيها زحفاً على الركب، وبيدي منجل، قصصت الحلم على أبي، وهو راعي الغنم، قال لي: ستصبح طبيباً جراحاً تغوص في جسم الإنسان، ربما القلب، أنا أنصح لك بالاختصاص في جراحة القلب، أو الأوعية الدموية، وتحققت النبوءة وتحقق الحلم، وإذا أنا طبيب مختص بقناة فالوب.

العجوز تهبط عن جمل ركبته.

ـ أخيراً، أنا سليلة بريطانيا العظمى القادمة من إدنبرة ركبت جملاً عربياً، أناخه ذلك المصري الأسمر لأجلي، مقابل خمسة جنيهات، مقابل دولار واحد، كنت مستعدة أن أدفع له خمسة دولارات، لا خمسة جنيهات، كنت أمني نفسي منذ زمن أن أركب ذلك الجمل العربي، مارجريت، هل التقطت الصورة؟، سوف أريها غداً لحفيدتي، كي تصدق أني ركبت جملاً عربياً.

لا خلاص لي منكن أيتها العجائز الثرثارات، هنا الصمت وحده المقدس، ليتكن تسمعن همس الصحراء النبيلة، ليتكن تسمعن نداء تلك القمة لذلك الهرم الراسخ، هناك النداء الأبدي للحياة، أما وقع أخفاف هذا الجمل الطيب على الرمال فهي جواب ذلك النداء، الجمل لو تعرفين أناخ بجسمه لأجل الإنسان، لا لأجل الدولار، انظرن إلى رأسه المرفوع، وشممه وكبريائه، راقبن عنقه الطويل الممتد مثل الحياة، ليقول حياتي مديدة، ورقبتي عزيزة، لاتطأطئ، لم تلاحظن أنه حين أناخ وقعد ظل رافع الرأس، لم يطأطئ رأسه، ولم يمِلْ به، ولم يحن ظهره، ولم يمل بسنامه المرتفع، قائمتاه الأماميتان هما اللتان ركعتا فقط، ظل رأسه شامخاً في الأعالي، وظلت رقبته طويلة ممتدة إلى الأمام في ارتفاع، ولم تنخفض، وظلت عيناه تحدّقان في الأفق البعيد، هو كرمى لكما أناخ، وكم كانت حركاته هادئة وادعة، لا عنف ولا جموح ولا حدة ولا قسوة

ولافجاجة، هو صبور حقيقة كما قرأت عنه، والصبر قوة في الروح، وهي أهم من قوة الجسد.

الدليل يعرض علينا أن ننزل بالحافلة إلى أبي الهول، ولكن أعضاء الفوج يعتذرون، يريدون الهبوط إلى أبي الهول سيراً على الأقدام، على الرغم من شمس تموز الحارقة، السير على الأقدام وسط أفواج من السائحين ممتع حقيقة، الدليل لا يبتعد عنا، وسائق الحافلة نفسه لا يغادرنا، مع أنه غير مكلف بمرافقتنا، وهو عارف بشوارع القاهرة أكثر من الدليل، كما يبدو، لأن الدليل يسأله أحياناً في أي شارع يسير، هما متعاونان ومتفاهمان، ويوم أول أمس حين اقترح علينا السائق نفسه تناول الحمام في مطعام فرحات، أبى كل منهما أن يشاركا الفوج في الطعام، وأرادا أن يبقيا بانتظارنا في الحافلة، ولكن أنا ألححت عليهما، وأبيت إلا أن يقعدا إلى جواري على المائدة، هما حييان جداً وخجولان، وفور دخولنا جامع محمد علي رأيتهما يصليان، والسائق يسمعنا دائماً ونحن في الحافلة تسجيلات لشيخ يتلو القرآن بصوت جميل، ووفق إيقاع هادئ فيه امتدادات واتساع ورحابة يذكرني بسهول أكستر وروابيها الخضر بل أحس مع صوته كأني أرى تألقات النجوم في سماء أكستر في ليلة صيفية رائقة، وعندما سألته عن اسم الشيخ قال:"هو الشيخ عبد الباسط عبد الصمد"، ووعدني أن يحضر لي شريط تسجيل.

وتميل بنا الطريق منحدرة نحو أبي الهول، والشمس تعلو في السماء، وتزداد قوة وحرارة، حقيقة هنا نحن أمام الشمس، هذه هي الشمس في صراحتها وقوتها وتحدّيها، هي الصفاء والنقاء، لا يصمد أمامها كذب ولا رياء ولا خبث، هي تصهر كل شيء وتعريه، وتكشف المستور، وتحدّد الظل بدقة، وتظهره بوضوح، ولكنه أمام الوهج يكاد يضمحل، هذه هي قوة الحياة، ومن حق أبي الهول أن يتوجه إليها وهي في الشرق، وأن يوليها ظهره وهي في الغرب، ويل لمن يتوجه إليها وهي في الغرب، ويل لمن لا يراها إلا ساعة الغروب، هذه هي مشكلتنا نحن في الغرب، تأتينا متأخرة، بعد أن تمر هنا في

الشرق الواضح الحر الطليق، ولا نراها نحن في الغرب إلا بعد أن تضعف وتفتر، حُقَّ للناس في الشرق أن يعبدوا الشمس في الزمن الغابر، فهي الحياة في قوتها، وهي واهبة الحياة.

ونأخذ في السير تحت شمس تموز، وها نحن ننحدر إلى أبي الهول في طريق هابطة.

لماذا اختار أبو الهول هذه الوهدة؟ ولم يقف إلى جوار الأهرامات في أعلى الهضبة؟ لا شك في أنه يريد أن يحمي الأهرامات، ويحفظ أسرارها، ويظل هو نفسه سراً مغلقاً، مثل الإنسان، وهو يتطلع إلى الأفق، في نظرة هادئة مستوية، تمتد إلى ما لانهاية في استقامة، لا انخفاض في نظرته ولا ارتفاع، هو الاستقامة والاستواء والعدل، كأنه يرسم خط اللانهاية، ويحدّد معنى العدل والاستواء، لا ميل ولا انحناء، هذا هو الخط المستقيم، وهذا هو العدل، هو الإنسانية كلها، ليس في وجهه علائم فرح ولا حزن، ولا دلالات ألم أو لذة، ولا إشارات تكبر ولا غرور، لا ملامح امرأة، ولا قسمات رجل، تحار فيه، هو الإنسان، في خلاصه ونقائه وصفائه، جسمه الذي هو جسم سبع يؤكد القوة، متشبث بالأرض، لأنه خرج منها، وهو تراب، ولكنه سابح في الهواء، لأنه يعيش فيه، ومتوجه أبداً إلى الشمس، قوة الحياة، أما الماء، فما يزال يأتيه من تحت الرمال، من مسامات الأرض، فالنيل منه قريب، وهو رابض على الضفة الغربية منه، النيل غيّر مجراه، وابتعد عنه، وهو ماثل في مكانه لا يبرح، هو مكتفٍ بذاته، مثله مثل الناسك المتعبّد، نذّر نفسه لسر الكون والأزمان، لا يتحرك ولا يريم، تدور به الأرض في الأفلاك، وتمر به الأزمان، وهو راسخ، ثابت على المبدأ، متمسك بعهد الوفاء، صامت لا يذيع الأسرار، وهو أسمر، أفريقي، وجهه هو وجه الإنسان الأول، ليس عمره أربعة آلاف سنة، بل أكثر من أربعين ألف، يقول أنا هنا الإنسان الأول، ألم يخرج الإنسان الأول من أفريقية؟ إنه رابض هنا لا ليحرس الأهرامات ومصر فحسب، بل ليحرس العالم كله الذي من وراء، وليحرس النيل من أمام،

ولذلك كان لا بد من أن يكون له جسم سبع، ليمتلك القوة، ورأس إنسان، ليمتلك الفكر، ونظرة ثاقبة مستقيمة تستطلع الأفق.

أنا هنا حقيقة أمام أكبر تحفة فنية في العالم كله هي على شكل إنسان لتمجد الإنسان وتؤكد قيمته المثلى في هذا العالم.

لم أشعر بمثل هذا من قبل، حين وقفت أمام برج إيفل أول مرة، قبل عشرة أعوام، أحسست أنني أمام عقل وحسابات هندسية تم تنفيذها بالحديد، هنا أنا أمام الإنسان.

ويقول الدليل:

ـ هو هضبة كلسية، حفرت في عام 2600 قبل الميلاد، لتمثل رأس الفرعون خفرع، واسمه القديم برحول، ولكن الفرنسيين نطقوه بوهول، وكان مغطى بالرمال في هذه الوهدة، والفرنسيون هم الذين كشفوا عنه في أثناء حملة نابليون على مصر، وكان أنفه سليماً، وهم الذين حطموه.

وأفتح كتاب الدليل السياحي، لأقرأ:

"أبو الهول، أضخم تمثال في العالم يقف في العراء، وأقدم تمثال ما يزال على سطح الأرض، بناه جيدفرع بن خوفو، تمجيداً لذكرى والده خوفو، وهو الذي بنى له مركبين، أبو الهول يحفظ لأبيه هيبته وذكراه على وجه الأرض، والمركبان يوفران له رحلة آمنة إلى العالم الآخر، ومن أبي الهول استوحى الإغريق فكرة الهولة الرابضة أمام باب ثيبة في الأساطير، وهي عندهم بوجه امرأة، وترمز للشر، يرجع تاريخ بنائه إلى أربعة آلاف سنة".

أقوال، وأقوال، منذ أن كنت في الابتدائية ما كنت أحب دروس التاريخ، هي أرقام وتواريخ وأسماء، ما كنت أستطيع حفظها، ليتني لم أسمعك أيها الدليل، لا، هو أبو الهول، أبو الهول، ليس غير، لا خفرع ولا منقرع ولا برحول ولا هضبة ولا رمال، هو هنا الإنسان، هكذا أنا أريده: "الإنسان"، هو "الإنسان"، كما أجاب أوديب عن سؤال الهولة.

ـ مارغريت، تعالي أرجوك، التقطي لي هذه الصورة، أنا هنا فوق الهضبة أرفع يدي، اجعلي يدي تظهر في الصورة فوق رأس أبي الهول، وكأنني أمسح بيدى رأسه.

ـ كريستين، أنا أقترح أن تقفي هنا في مكانك على الهضبة، وأن تمدي فمك إلى أمام، وأن تزمّي شفتيك قليلاً، سأجعلك تظهرين وكأنك تقبلين فم أبي الهول.

ـ فكرة رائعة، نفّذيها فوراً.

ـ أنا أتمنى أن أظهر في الصورة وكأنني أركب فوق ظهره.

ـ لا يا ديانا، هذه فكرة صعبة، لا يمكن تنفيذها، حتى ولو في الصورة.

ـ أنا أشتهي أن يكون أبو الهول قالباً من الكاتو، لألتهمه كله.

ـ قولي ليته قطعة مثلجات في مثل هذا الحر.

ـ لا يمكن أن يكون قطعة مثلجات تحت هذه الشمس الكاوية.

ـ كنج إدوارد، تعال، التقط صورة معنا.

ـ شكراً، أنا لا أحب الصور.

ـ خسارة أن تأتي إلى مصر، وترجع من غير أن تلتقط صورة، لن يصدق أحد أنك كنت في مصر.

يكفي أن تصدق زوجتي فيث أنني كنت في مصر. أنتن لا تصدقن إلا ما تراه العين، أما مايراه القلب فلا وجود له عندكن.

لو كانت زوجتي هنا لفكرت بالغوص أسفل أبي الهول، لترى إن كان ثمة فرع من النيل يجري تحته، وهي لا تشك في أن تحته ماء يجري، الكون عندها كله ماء، مثل رحم يسبح فيه جنين، وهي لا تدري أن الماء موجود هنا في كل حبة رمل، ألم تكن هذه الحبة من قبل مروية بماء البحر؟ لا بد أن يكون فيها شيء من ندى البحر، شيء من ذكرى البحر.

ـ سمعت عن نفق يصل بين أبي الهول وهرم خوفو الكبير، هل هذا صحيح؟.

ـ يمكن أن يكون ذلك، هناك أسرار كثيرة تحت هذه الرمال لم تكشف بعد.
ـ أنا أتمنى أن أدخل إلى قلب أبي الهول لأرى ماذا يحوي في داخله.
ـ يكفي أنك دخلت إلى قلب هرم خفرع.
ـ أحسنت يا كنج إدروارد إذ لم تدخل معنا إلى قلب خفرع، حقيقة، ليس هناك سوى سرداب خانق، وغرفة محدودبة السقف، يقال إنه كان فيها ناووس، لم نستطع كشف سر الهرم، وخرجنا ونحن نتصبب عرقاً.

يكفيني أنا نفق فالوب، أكثر من عشرين عاماً وأنا أحاول كشف سره، وما تزال إلى اليوم هناك أشياء مجهولة، ليس الإنسان وحده ذلك المجهول، بل كل خلية فيه ما تزال ذلك المجهول، نحن لم نعرف شيئاً بعد من أسرار هذا الكون، وسنبقى نحاول معرفة كل شيء، ولكن لا أعرف لماذا أحب أن يبقى الهرم وأبو الهول ومصر كلها سراً مغلقاً أتوق دائماً إلى الغوص فيه، ولا أفض السر.

ـ والآن سنرجع إلى هرم خوفو لنزور سفينة خوفو.

ياللهول، هل تستحق سفينة خوفو العودة تحت شمس تموز الحارقة؟ لعلها تستحق، ولكن لماذا لم نزرها حين كنا هناك؟ هل نسيتها أيها الدليل الطيب؟ هل أتعبتك الأفواج السياحية؟ هل مللت منها؟ أجيال وأجيال مرت أمام أبو الهول عبر آلاف السنين، لماذا مللت أنت؟ .

كم أود لو بقيت هنا وحدي، كنت أود لو اتخذت قرار العودة إلى خوفو وحدي، بنفسي، من غير أن تسوقنا أنت إليه، منذ أن كنت صغيراً كنت أحب بعض الخراف، ولكن ما كنت أحب القطيع، ولا سيما حين ينحدر في الوادي.

رجعت أنا مع أعضاء الفوج سيراً على الأقدام، صاعدين مع تلك الطريق الصاعدة نحو الهرم، وقد هبطنا معها منذ قليل، لا بد من الهبوط والصعود، والصعود والهبوط، ولو تحت شمس تموز، هذه هي سنة الحياة، العجائز الثلاث ركبن عربة يجرها حصان، العربة مزركشة بأقمشة حمراء وزرقاء ذات ألوان فاقعة، وهي مغطاة بقماش يقي من الحر، وللحصان أجراس

تجلجل، حوافره على إسفلت الطريق لها إيقاع محبب، والحصان البائس يصعد ببطء، وكثيراً ما تنزلق حوافره على الإسفلت، ويكاد يسقط على ركبه، ولو سقط لتحطمت، مع أن حمله غير ثقيل، ولكنه فيما يبدو متعباً من الحر، والعمل، ويبدو أنه لا يتناول الطعام الجيد، مع أن صاحبه أحاطه بأحزمة جلدية مزينة بكثير من الودع الأبيض كي يرد عنه أعين الحساد، ووضع فوقه سرجاً مزركشاً، لم تكن العربة أسرع منا، نحن أعضاء الفوج السياحي، الحوذي الأسمر بجلابيته ذات الأكمام الواسعة وفتحة العنق العريضة يكلّم العجائز الثلاث بإنكليزية ركيكة، ويصيح على الحصان المتعب، ويضربه بسوطه، هل سيحظى الحصان في النهاية بكيس من الشعير؟ عند نهاية الطريق أبى الحوذي إلا أن يأخذ منهن مئة جنيه، ثم ألح، وحصل منهن على عشر جنيهات أخرى، زعم أنها لأجل الحصان، لقد حققن رغبتهن، في المتحف رأين عربة توت عنخ آمون الملكية المذهبة، وتمنين أن يركبنها، ولكن، لو ركبن مثل تلك العربة لرمى بهن الجواد بعد خطوتين، حسبهن أنهن وصلن بأمان إلى أعلى الهضبة، وإلى جوار سفينة خوفو بسلام، ومن غير أن يتصببن عرقاً.

ـ قلت لك، منذ أن أقلعت بنا الطائرة من مطار هيثرو، لا بد أن نركب في مصر عربة يجرها حصان.

ـ أنت عرافة صادقة، ياكريستين.

ندخل إلى المبنى الفخم الذي يحتضن السفينة، وقد أدخل كل منا قدمه وهي في الحذاء داخل كيس خاص من كتان خشن، وزارة السياحة والآثار حريصة على حماية السفينة من غبار أحذيتنا المثقلة بالرمال، المكان هنا نظيف ومكيف، وطريقة العرض راقية، تصعد الأدراج، وتطوف في شرفات حول السفينة، لتراها من فوق ومن تحت، ومن الجهات كلها، وأنت تنعم بالجو البارد المكيف المختلف كثيراً عن الحر الشديد في الخارج.

هنا تتجاوز الأزمان وتشعر بالرحلة نحو العالم الآخر، كل شيء معدّ وجاهز، والسفينة إنسانية بقدر ماهي ملكية، فهي مستعدة للإبحار بك في رحلة لا تنتهي إلى عالم لا حدود له، وهي الآن محلقة في الفضاء، وأنت تطير بها، في طول يمتد حوالي أربعين متراً، وفي خشب من أرز لبنان عمره أربعة آلاف عام بل أربعون ألفاً، وهو الشجر الخالد الذي لا يموت، والمقصورة الملكية توحي لك بالدفء والأمان، والمجاذيف تغوص في الهواء، وأنت بها مرتحل، هي مستعدة للإقلاع بك الآن في آماد وأبعاد لا حدود لها، فهل أنت مستعدّ للرحلة؟.

لا بد من السفينة، لا بد من الارتحال، لو رأت زوجتي الآن السفينة، لقالت على الفور: ألم أقل لك إن البحار هي الأصل، ولكنها لا تدرك أن هذه السفينة كانت مدفونة في الرمال، وأنها معدة لتمخر في الأزمان لا البحار.

يقول الدليل:

ـ اكتشفت هذه السفينة عام 1954، هي مركب الشمس لخوفو، بناها له ابنه جيدف رع عثر عليها في حفرة جنوب الهرم صنعت خصيصاً لأجلها، تحت الموضع الذي نحن فيه هنا الآن، كانت في وضع جيد، وقد دفنت مفككة، لينهض خوفو ويقوم بتركيب أجزائها، والحفرة تحيط بها مثل القبر، وقد غطيت من فوق باثنتين وعشرين بلاطة، كل بلاطة تزن أكثر من عشرين طناً، لحمايتها من اللصوص، وكتب على البلاطات تاريخ خوفو، وإلى الشرق من الهرم حفرة أخرى مماثلة، ولكنها فارغة للتمويه على اللصوص.

هاهنا مصر الحقيقية، في هذه الصحراء، ومع هذه السفينة الفرعونية حقيقة، من المؤسف أننا أمضينا ليلة أمس الخميس في سفينة أوربية حديثة، اسمها السفينة الفرعونية، تعوم فوق النيل، العشاء متنوع، مصري وأوربي، والسهرة منوعة، مغنية عربية، وراقصة عربية، في ثياب الرقص الشرقي المعروفة في الأفلام العربية، النساء العجائز الثلاث أعجبن بها أكثر مما أعجب بها الرجال، ولعل كل واحدة منهن تمنت أن ترتدي ثوب الرقص الذي

كانت ترتديه، لا أعرف لماذا يكثرن من الأصباغ على وجوههن، جدتي ماكانت تعرف تلك الصباغ، شمس صيف أكستر، وبرد شتائها عملا على حفر أخاديد في وجهها، ولكن ما رأيتها يوماً قد وضعت مثل تلك المساحيق، أكثر ما ساءني هو تجوال الراقصة بين الموائد، والتقاط المصور الصور لكل زبون وهي إلى جواره بصدرها شبه العاري، ثم يفاجئنا المصور بتوزيع الصور علينا، وقَبْض ثمنها، صدقيني، فيث، أنني سارعت إلى تمزيق الصورة، وإن كنت قد دفعت فيها عشرين جنيهاً، أعضاء الفوج فرحوا بالصور واحتفظوا بها، حتى العجائز الثلاث فرحن بها واحتفظن، ما سرني في تلك السهرة هو فقط شعوري بأن السفينة تعوم بي فوق النيل.

مارجريت تسأل:

ـ ولماذا صُنِعَتْ هذه السفينة؟.

ـ من المفترض، وفق تصور المصريين القدماء، أن تعود روح خوفو إلى جسده، وهو المدفون في الهرم، فينهض عندئذ، ويبني مركبه، ويذهب بها إلى العالم الآخر، هي أكبر مركب عثر عليها في مصر، وهناك سفينتان مثلها محفوظتان في المتحف، وقد رأيتم السفينتين من غير شك.

قبل دخولنا إلى المبنى الذي يحتضن السفينة عرّجنا على قصر صغير، فرعوني الطراز، مهجور، جداره متصدع، يكاد ينهار، قال لنا الدليل:

ـ هذا قصر الملك فاروق، بناه قبل مئة عام فقط، ليستريح فيه كبار الزوار، لدى زيارتهم الهرم، انظروا كيف تهدم، والهرم ما يزال إلى اليوم، وعمره أربعة آلاف عام.

ثم من الهضبة أطللنا على القاهرة، ما أروعها؟ هي مثل جدتي العجوز التي كانت تتدثر بغطاء من جلد الخروف، وهذه القاهرة تتدثر بغطاء من صهد الأرض ولهاث السيارات وزحمة العمارات والبشر، كم أحبّها وكم أشفق عليها، كم هي متشققة الجلد، ناشفة، جدرانها ظامئة إلى الماء، ما أحوجها إلى

الماء لتغوص فيه مثلما تغوص فيه زوجتي فيث الآن هناك في شرم الشيخ لترى الشعاب المرجانية.

مع خروجنا من المبنى الذي يحتضن السفينة، يرن جوال مارجريت، هو رنين رسالة، لا رنين اتصال، تفتحه، تقرأ فيه، تصيح:

ـ خبر سيئ، سائحة في شرم الشيخ يلتهمها قرش.

الوهج الحار يلفحني، أختنق، أنظر في مارجريت، أغص، تهمس.

ـ أرجو ألا تكون زوجتك.

أرفع الجوال، أتصل، أعيد الاتصال، ولا جدوى، لا رنين، الجوال مغلق.

أنظر إلى الجوال في يد مارجريت، أسود، شاحب، بل ألوانه باهتة، كالعصفور في الحلم، العصفور ينقر في إصبعي.

شيء ما في داخلي ينفجر يتصدع يهوي، هرم خوفو ينهار، حجارته تتبعثر، أبو الهول يطير، جلدي يتقشر، دمي أشد غلياناً من هذا الرمل المشتعل، ليتني كنت معك، فيث، حبيبتي، أيتها الزوجة المؤمنة، لا يمكن أن تكوني أنت، سأوقد شمعة في الكنيسة لأجلك، إن لم تكوني هي أنت، ليتني كنت ذلك الرجل الأخضر لكي أطير إليك، جبريل حدثني عنه، قال لي هو حاضر في كل مكان، يحضر في المكان الذي يذكر فيه، لماذا لم تذكريني، فيث، ليتني كنت معك، خطئي أنا أني جئت هنا إلى الصحراء، ليتني أتفتت مثل رمالها، قلت لي تعال معي إلى البحر، البحر أجمل، قلت لك لا، أحب الشمس والصحراء.

الساحرات الثلاث يرقبنني، أكاد أتعثر بين الصخور قرب هرم خوفو، تعبر في السماء فوقنا طائرة ركاب مسافرة، أرفع رأسي إليها، ليتك تحملينني الآن إلى شرم الشيخ، ليت هذا الجمل بالأثواب المزركشة يحملني إليها، ما العمل الآن؟.

وأرفع الجوال، أنظر في ساعة يدي، أتصل بعوض.

ـ عوض، موعدنا الساعة الثانية عشرة، ولكن أريدك الآن، فوراً.

ـ حاضر، مستر إدوارد، أنا قريب من منطقة الهرم، بعد عشر دقائق أصل إليك، عند أي بوابة تريدني، الشرقية، أم الغربية.

ـ عند الغربية.

ـ توجّه إليها الآن، مستر إدوارد، فور خروجك منها ستجدني أمامك.

من البوابة الغربية سأخرج، من بوابة الموت، الآن عرفت لماذا بنى المصريون الأهرامات على الضفة الغربية من النيل، ولماذا جعلوا أبا الهول ينظر نحو الشرق، كنت أحسب نفسي مثله، أتطلع دائماً نحو الشرق، والآن أجدني مع الشمس أتجه نحو الغرب، فيث، أرجوك، لا تكوني أنت.

وأرفع الجوال ثانية، أتصل، وأتصل، ولا جدوى، لا رنين، الجوال مغلق.

الرجال في الفوج يلتفّون حولي، يريدون مواساتي، أراهم منجلاً يريد حصدي، كأنهم يقفون أمام تابوت يريدون تشييعه، أغص، أكاد أختنق، كأني ابتلعت رمال مصر كلها.

ـ لا تقلق، لعلها الآن تغوص في البحر.

وأرد:

ـ لا يعقل، لا شك أنهم منعوا الغوص، بعد الحادث.

ـ لعلها على الرمال، وجوالها في غرفتها.

ـ ربما هي خارج التغطية.

ـ لعل جوالها مغلق.

ـ أو انتهى شحنه.

أكاد أصيح بهم: كفى، كفى، الصحراء تردد صوتي، أبو الهول يلتفت نحوي، يسد أذنيه، يقول أصبتني بالصمم، أراه يذرف الدمع، لعلها المرة الأولى التي تتغير فيها ملامح وجهه.

أعاود الاتصال بعوض:

ـ أهلاً مستر إدوارد، خمس دقائق أكون بعدها عند البوابة.

ـ كم تبعد شرم الشيخ عن القاهرة؟؟

ـ ستمئة كيلو متر، ثماني ساعات بالسيارة، ساعة بالطائرة، كل ثلاث ساعات هناك طائرة، لماذا مستر إدوارد؟ هل تريد الغوص مع زوجتك في شرم الشيخ، حدثتني عنها أنها هناك في البحر تحب الشعب المرجانية، يمكنني أن أوصلك إليها في خمس ساعات.

ـ عوض، زوجتي فيث، لا ترد على الهاتف، جوالها مغلق، القرش أكلها، أرجوك ساعدني، سأسافر إليها بالطائرة.

ـ اطمئن، مستر إدروارد، ليست زوجتك.

ـ وكيف عرفت؟

ـ المرأة التي أكلها القرش، ياللمسكينة، ألمانية الجنسية، أنا سمعت الخبر قبل قليل من المذياع، هنا في السيارة، هل زوجتك ألمانية؟

وألتفت إلى مارجريت:

ـ مارجريت، هل ذكروا في الخبر جنسية المرأة التي أكلها القرش؟

العجوز تتعثر في حلقها الكلمات:

ـ لا أعرف، لم أقرأ الخبر جيداً، لم أقرأه كاملاً.

ـ أرجوك، اقرئيه جيداً.

صوتها يجف، يغيب، كأنها ابتلعت كومة من رمال، تخرج النظارة من حقيبة يدها، تضعها على أرنبة أنفها.

ـ نعم هي من ألمانيا، هي ألمانية الجنسية، هكذا جاء في الخبر.

ليت الرمال المتحركة تبتلعك، ليت دوامة البحر تشدك إليها، أيها الرب، ألا توجد هنا رمال متحركة، تبتلعني أو تبتلع هذه العجوز، تبتلع العجائز الثلاث.

ألتفت إلى أعضاء الفوج:

ـ أستأذنكم، أنا مضطر للمغادرة، تابعوا جولتكم.

ـ كلنا سنذهب معك.

ـ لا يمكن أن نتركك تذهب وحدك.

ـ انتهت جولتنا في الهرم.
ـ سننهيها، وإن لم تكن انتهت.
ـ مستر إدوارد، نحن معك.
ـ كنج إدوارد، نحن كلنا معك.
أرد:
ـ عوض، في سيارة الأجرة ينتظرني، ينتظرني عند البوابة.
ـ لاتذهب إلى البوابة على قدميك.
ـ الحافلة هنا تنتظرنا.
ـ سنذهب كلنا معك.
ـ نوصلك إلى البوابة.
ـ عاود الاتصال بزوجتك.
وأعاود الاتصال، ويأتيني صوتها رذاذ ماء عذب مثلج، كأنه النيل كله يتدفق في شراييني، يروي الصحراء، يغمر الأهرامات كلها، وأبو الهول يسبح فيه.
ـ أهلاً فيث، أين أنت؟
ـ اطمئن، أنا بخير، لست أنا من التهمها القرش، المسكينة، يا إلهي، سائحة ألمانية.
ـ لماذا لم تردّي على هاتفي قبل قليل، اتصلت بك عدة مرات؟ أقلقتني.
ـ هاتفي الجوال مغلق، الآن فتحته، أنا الآن أهبط على سلم الطائرة، أنا هنا في مطار القاهرة.
ـ مطار القاهرة؟
ـ نعم، الشاطئ مغلق، جئت على أول طائرة إلى القاهرة، هنا كل ثلاث ساعات رحلة، أردت مفاجأتك، سألتقيك في المطار، حجزت على طائرتك لنعود معاً إلى أكستر.
ـ ولماذا لم تخبريني.

ـ كنت أود مفاجأتك في المطار، لن أتركك بعد اليوم ولو ساعة واحدة، سأذهب معك ولو ذهبت إلى قلب الصحراء الكبرى في قلب أفريقية، لن نفترق بعد اليوم.

ـ شكراً حبيبتي، وحجزك في الفندق؟ وإجازتك السنوية؟.

ـ ألغيت كل شيء، فور سماعي خبر السائحة وسمك القرش، ألغيت كل شيء، يا إلهي، لو ترى الناس، دب الذعر في الجميع، أنا فوراً ألغيت كل شيء، وحجزت على طائرتك، أقلعت بي الطائرة من شرم الشيخ قبل ساعة فقط، في العاشرة والنصف، أنا الآن هنا في المطار، سأنتظرك هنا.

الرجال من حولي يصفقون، الناس في الهرم كلهم ينظرون إلينا، خوفو شامخ إلى السماء، الدليل يشد على يدي، يعانقني، الرجال كلهم يعانقونني، أنا أطير في الهواء، أنا أعلى من خوفو، أنا فوق أبي الهول.

ـ هيا إلى الحافلة، كي تنقلنا إلى البوابة.

تغيرت قناعاتي، لن أمضي بعد اليوم الإجازة مبتعداً عنك، من الخطأ أن يمضي كل منا الإجازة بعيداً عن الآخر، بدعوى تجديد الحياة ولكي يشتاق كل منا للآخر، هذه مقولة أصبحت عندي غير صحيحة، يجب أن يمضي الزوجان كل الإجازات معاً، ليعيشا معاً خبرة واحدة وتجربة واحدة وحياة واحدة، فتنمو حياتهما معاً، ويتطوران معاً، ويزداد كل منهما قرباً من الآخر، مثل زهرتين تنموان في حوض واحد وتربة واحدة، حين يمضي كل منهما الإجازة في مكان مختلف عن الآخر يتسع بينهما الاختلاف، كل منهما يكتسب خبرة تختلف عن الآخر، فيصبحان مختلفين، جدتي تقول: يجب أن يكون الزوجان من بلد واحد، لا من بلدين مختلفين.

أودّع رجال الفوج، أعانقهم واحداً واحداً، أصافح الساحرات الثلاث، أطبع قبلات خفيفة على وجناتهن.

ـ سامحني، كنج إدوارد، سببت لك الإزعاج.

ـ سامحك الرب، مارجريت، ليس الذنب ذنبك، هو ذنب الجوال الذي نقل لك الخبر، وربما ذنب النظارات التي لم تضعيها على أنفك لتقرئي الخبر كاملاً.

أستل من محفظة نقودي قطعة ورقية، لا أعرف كم هي بالضبط، أعطيها لسائق الحافلة، أشكره، أنفح الدليل أخرى، لعل كل واحدة من فئة العشرين جنيهاً، لست متأكداً، أهبط من الحافلة، أشير بيدي لفريق الفوج مودعاً.

لم أكد أخو خطوة خارج الحافلة، حتى أسمع الدليل يناديني:

ـ مستر إدوارد، مستر إدوارد.

وألتفت، هل نسيت شيئاً؟ لا، الحقيبة الجلدية على ظهري، وكتاب الدليل السياحي بين يدي، لا يمكن أن أنساه، نسيته مرة واحدة، لا يمكن بعد ذلك أن أنساه.

الدليل، ينزل من الحافلة، يمد يده نحوي بشيء.

ـ تفضل، هذا شريط تسجيل هدية من السائق، فيه تسجيل للقرآن الكريم بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

طيبون، أناس طيبون، لا يمكن أن أنساهم.

من الغرب جئت ومن الغرب أرتحل، كم كنت أتمنى لو دخلت من الشرق، ومنه ارتحلت.

وأنا في سيارة الأجرة يبادرني عوض:

ـ اطمئن، أنا متأكد، المرأة التي قتلها القرش ألمانية الجنسية، المسكينة، الآن سأسمعك الأخبار من الإذاعة، هذه أول مرة يظهر فيها القرش في شرم االشيخ، هذه هي الحادثة الأولى من نوعها، أرجو ألا تتكرر، ليس في مياهنا أسماك قرش، شرم الشيخ أجمل شاطئ في العالم، وأجمل منه دهب، لو تذهب إلى دهب، لترى الذهب.

ـ شكراً لك عوض، فيث ردت على هاتفي، هي بخير، وهي الآن في مطار القاهرة، سبقتني إليه، حجزت على طائرتي نفسها، سنعود معاً إلى

أكستر، ألغت حجزها في شرم الشيخ، وألغت إجازتها السنوية، سنعود معاً، سألتقيها في المطار، كلمتني طويلاً، وكلمتها.

ـ أهنئك مستر إدوارد.

لولا هذا الجوال كنت جننت، هو نفسه سبب شقائي، هو الذي نقل إلي الخبر، وهو سبب سعادتي، هو الذي حمل إلي صوت فيث، ياللعجوز الساحرة، لماذا هي مشتركة في خدمة نقل الأخبار، هل تهمها أخبار العالم؟

ـ عوض، كم نحتاج كي نصل إلى المطار؟

ـ ساعة، أو أقل؟

ـ لا يعقل؟ القاهرة مزدحمة؟

ـ سأقود في طريق خارج القاهرة، اطمئن.

وينطلق بنا عوض.

ويدير المذياع، أسمع دقات ساعة غرينتش.

ـ اسمع مستر إدوارد، هذه هي إذاعة بي بي سي، من لندن، أنا سأترجم لك الخبر.

وتمضي بنا السيارة، ليتني أعود إلى هرم خوفو، لأراه ثانية، ليتني ألقي نظرة أخيرة على أبي الهول، أريد أن أرى الأهرامات كلها من جديد، ولكن وحدي، من دون فوج سياحي، ومن دونكن أنتن أيتها الساحرات، من دون الفوج كله، على شرط أن تكون فيث معي، فيث، لا بد أن نعود إلى مصر ثانية، لا أصدق الآن أني أغادر القاهرة، كم أنت رائعة، مع أنك تشبهين كثيراً جدتي العجوز، بشعرها الأبيض، ووجهها المتجعد، وفمها الذي سقطت منه جميع أسنانه، فالتوت منها الشفتان، فيث، كم أنت رائعة، سألتقيك في المطار، وأعانقك، أمام الجميع، وأرتوي من شفتيك، جسمي جفّ هنا في صحراء الهرم، غدوت مثل رمالها المفتتة الحارقة، غدوت مثل الهرم، عندما سمعت الخبر، كومة حجارة، ضمّيني إليك، كي أعود مرصوص البنيان، كي أعود مثل الهرم شامخاً، أعيدي برضابك خلقي من جديد، اصهريني بدفء صدرك،

سأتطلع معك إلى الشرق ثانية، لن أكون وحدي بعد اليوم، لا بد أن نمضي كل إجازاتنا معاً، حتى ولو في الجحيم.

ـ أرجو ألا يكون باعة التحف والهدايا قد أزعجوك؟ مستر إدوارد.

ـ فعلاً هم كثيرون، ويلحّون عليك لتشتري تحفة تذكارية، ولكنهم بسطاء وطيبون، ولو أنني أحب التذكارات والهدايا لاشتريت منهم أشياء كثيرة، ولكن تعرفني لا أحب الأشياء المادية، وفي الحقيقة نحن الذين أزعجنا صمت الصحراء، وقدسية أبي الهول، وشموخ الأهرامات، لو ترى الأفواج السياحية كم هي كثيرة، وهم لا يحترمون تقاليد الشعب المصري، أنا أشعر الحقيقة بالخجل من السائحات بصورة خاصة، وهن يعرين صدورهن لدى دخولهن إلى حرم هذه المعابد، وأمام عيون المصريين الطيبين.

حتى الساحرات الثلاث كنّ يكشفن عن أعلى صدورهن، جدتي القروية لم تكن مثلهن، جدتي لم تزر مصر، ولم تعرف شمس الشرق، أمضت عمرها في سهول أكستر الخضراء، وحين تسطع شمس الصيف، كانت تضع على رأسها قبعة عريضة، وتقعد في الشمس، تستشعر دفئها، وهي تقول: هذه هي شمس الصحراء، هذه هي شمس العرب، هي التي حببت إلي الشمس والصحراء.

ويعلق عوض:

ـ نحن نقبل هذا، ونقدر أنهم يريدون تعريض أجسادهم لشمسنا.

ـ حقيقة شمسكم متميزة، وجدير بنا أن نعرض رؤوسنا لها.

ـ لا، لا يمكن أن تحتمل رؤوسكم أشعتها، أنتم غير معتادين عليها، نخشى أن تذيب أدمغتكم.

ويمد يده، يقدم لي شيئاً:

ـ هذا هدية لك.

ـ أنا لا أحب الهدايا، ولا أريد حمل أي شيء، أنا لا أحب حمل غير هذه الحقيبة التي تراها دائماً معي.

زوجتي هي التي تحب الهدايا، لا شك أنها ملأت حقيبتها بهدايا بحرية، لا بد من القواقع والأصداف وقطع المرجان والسفن الصغيرة وما لا أعرف من الألبسة والهدايا، لا شك أن باعة التحف والهدايا هناك في شرم الشيخ أكثر إلحاحاً من باعة التحف والهدايا هنا، لاشك في أنها قد ملأت ثلاث حقائب.

ـ ولكن هذه هدية صغيرة ومتواضعة.

ويفتح عوض صندوقاً صغيراً جداً، بحجم راحة اليد، يبسطه أمام عينيه.

ـ ماهذا؟

ـ جُعَل، أو جُعْران فرعوني، من حجر المغنيز، كان المصريون القدامى يظنون أن سر الحياة كامن فيه، أنا أحمله إليك هدية، هو سر الحياة.

آه، قرأت عنه، يجمع التبن والروث، ويدحرجه أمامه، يضع فيه بيوضه، ثم يدفنه في حفرة، وسرعان ما تفقس البيوض، تحت أشعة الشمس، وبفعل حرارة التبن والروث، وتخرج جعرانات صغيرة، ظنه المصريون القدامى سر الحياة.

ـ من أين اشتريت هذا الجعران؟

ـ ما اشتريته؟ هو هدية من صديق.

ـ من هو هذا الصديق؟

ـ أعطاني إياه صديقك الشامي، كي أهديك إياه.

ـ الآن عرفت السر، منذ هبوطي من الحافلة، وطوال تجوالي في منطقة الهرم، وأمام أبي الهول، أحس كأني أنا لست أنا، كأن ذلك الرجل كان في دماغي وقلبي، كأنه كان ينطق بلساني، أو كأن لساني كان ينطق بمشاعره وأفكاره، منذ أن زرته قبل يومين، في شقته المستأجرة بمكرم عبيد، وكأني أنا هو، وكأنما هو أنا، لا أعرف ماذا سقاني؟

ـ هل سقاك قهوة مرة؟.

ـ نعم.

ـ هذا من تأثير القهوة العربية، هي من تأثير قهوة الشام وحب أهل الشام لمصر.

مع وصولنا إلى المطار، أستل من محفظة نقودي مئة جنيه، أناولها عوض.

يقول لي:

ـ لن آخذ منك أجرة، اعتبر توصيلي لك إلى المطار هديّةً مني لك.

ـ لا، أشكرك، عوض، أنت رجل طيب.

ـ سآخذ خمسين فقط، لن آخذ أكثر.

ـ خذ ما تشاء، وبالبقية أرجو أن تشتري

وأصمت قليلاً، ثم أضيف:

ـ سأطلب منك طلباً قد يكون صعباً!

ـ لأجلك لا يصعب شيء، ولو كان في الصين.

ـ لا، هو في القاهرة.

ـ ما هو؟

ـ أنت طبعاً، مسلم؟

ـ نعم.

ـ الطلب صعب، إذن.

ـ لاشي يصعب لأجلك، هل تريد أن أدخل الكنيسة لأجلك.

ـ ما هذا الذكاء ياعوض؟ نعم، أريد أن تشتري لي شمعة واحدة، وتشعلها لأجل زوجتي في أقرب كنيسة كاثوليكية في القاهرة، كاثوليكية أو غير كاثوليكية، بيت الرب واحد.

ـ صدقت، مستر إدوارد، بيت الرب واحد، والرب واحد، نحن هنا في مصر شعب واحد، من مسلمين ومسيحيين، وحتى يهود، صدقني نحن لا نعادي اليهود، مسألة إسرائيل وكامب ديفيد أمر آخر، ليس الآن وقت الحديث عنه، المهم عندنا: الرب واحد، سأدخل الكنيسة وسأوقد شمعتين لك ولزوجتك،

صدّقني لا فرق بين مسلمين ومسيحيين، الرب واحد والدين واحد، نحن جميعاً أبناء إبراهيم الخليل، نحن عندنا شاعر لا أعرف اسمه جيداً، أظنه ابن الفارض، أو ابن عربي، يقول بيت شعر لا أحفظه، ولكن معناه: قلبي يتسع لكل الأديان، فهو كنيسة ومسجد.

ويصمت قليلاً، ثم يضيف:

ـ هل تذكر اسم الحي الذي أحضرتك منه، حيث شقة الأستاذ الشامي؟

ـ نعم، مكرم عبيد.

ـ وهل تعرف من هو مكرم عبيد؟

ـ لعله أحد العلماء المسلمين في إسبانيا، عندما كان اسمها الأندلس.

ويضحك عوض، يشد يديه على المقود، ويتكلم بفخر:

ـ هو وزير قبطي، عمل وزيراً للمالية، توفي عام 1961، وعندما قتل حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، سار في جنازته إلى جانب والده، كان يقول:"نحن مسلمون وطناً ونصارى ديناً، اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن نصارى، اللهم اجعلنا نصارى لك، وللوطن مسلمين"، وكان مقرباً من سعد زغلول، وبعد وفاة سعد أصبح أمين حزب الوفد، وهو الذي درس في أكسفورد ونال الدكتوراه في الحقوق، ودافع عن عباس محمود العقاد، حين سجن في العهد الملكي، عباس العقاد مفكر إسلامي، وهناك شارع سُمِّيَ باسمه، قريب جداً من شارع مكرم عبيد، وأظنّك مررتَ به، عندما زرتَ الأستاذ الشامي، عباس العقاد ومكرم عبيد كل منهما جدير بتمثال في ميدان التحرير، أو في أول الشارع الذي سمي باسمه، هل تعرف أن مكرم عبيد هو صاحب فكرة النقابات العمالية في مصر، نحن هنا في مصر، كما قلت لك، لا فرق بين مسلم ومسيحي، الدين لله، والوطن للجميع.

دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوان
شوقي

لأجلك أطلّ من هذه الشرفة
لك أفتح هذه النوافذ
أيتها الزوجة الغالية

شرفات على القاهرة

1

في ميدان طلعت حرب يقف تمثال طلعت حرب، في ميدان عرابي يقف تمثال أحمد عرابي، في ميدان عبد المنعم رياض يقف تمثال عبد المنعم رياض، في ميدان دار الأوبرا الجديدة يقف تمثال سعد زغلول، تماثيل تماثيل، كلها تقف عالياً، فوق منصة عالية تعلو أكثر من خمسة أمتار، تنظر إلى البعيد البعيد، لا ترى أحداً، لا أعرف لماذا تقف هكذا عالية جداً أقدامها فوق رؤوس البشر؟.

2

يصل المترو، أقترب من حافة الرصيف، ثمة زحام شديد، لا بد لي من أن أندفع الجموع، ولكن هذه عربة تكاد تكون فارغة، أتجه إليها، لا يكاد أحد

يتجه نحوها، ليست مزدحمة، بل إن بعض المقاعد شاغرة، أقف، مسسكاً بالقضيب المعدني، وينطلق المترو.

شابة تقترب مني تكلمني بإنكليزية ضعفة جداً، وهي تبتسم، بل تضحك، أدهش، إذ أجد في القاهرة شابة تكلمني كأنها تعرفني منذ قرن، لا أعي كلماتها، أحسبها تحييني، لا أعرف كيف أرد عليها مصطنعاً، أراها تضحك، وتتابع الكلام، وأنا لا أعي ما تقول، تشير إلى المقاعد، أنظر، أفهم أخيراً أن هذه العربة مخصصة للسيدات.

في المحطة التالية، أنزل، لأصعد في العربة التالية لها مباشرة، قبل أن يراني الشرطي، وإلا دفعت غرامة.

3

ـ إلى ميدان عبد المنعم رياض.

ـ تفضل، أهلاً، أنا والسيارة في خدمتك.

ـ تأخذ.. كم؟

ـ من غير فلوس؟

ـ لا، هذا كثير، تأخذ.. كم؟

ـ لن نختلف، الذي تدفعه أنت؟

ـ الأفضل أن نتفق.

وتصرخ وراءنا أبواق السيارات والحافلات.

ـ تفضل، ادفع زي ما أنت عايز.

وأصل إلى ميدان عبد المنعم، المسافة أقل من ألفي متر، أدفع له عشر جنيهات، يرفض أخذها، وهو يقول:

ـ لا أقبل بأقل من عشرين.

4

ـ من فضلك، اربط الحزام، وإلا دفعت غرامة مئة جنيه.

أقول في نفسي:

ـ شيء ممتاز، دليل حضارة.

أمد يدي إلى جانبي الأيمن، أبحث في طرف المقعد عن الحزام، بعد جهد، أعثر عليه، أشده، وإذا هو مهترئ متقطع، أبحث عن القفل، لا أجده، ويأتيني صوت السائق:

ـ ضعه في حضنك، هي مسألة شكل، لا أكثر.

5

أمام قبر السادات تسأل مارجريت:

ـ لماذا بُنِيَ هذا الهرم الفارغ فوق قبر السادات؟

وترد كريستين:

ـ وهل يجب أن يُمْلأ بالذهب مثل الفراعنة ؟

6

بجوار الهرم تسأل كريستين:

ـ أين قبور الناس الذين بنوا الأهرامات؟

ينظر إليَّ الدليل مبهوتاً، ثم يقول:

ـ طول عمري ما فكرت بهذا السؤال.

7

في حديقة الحيوان كان الازدحام شديداً أمام قفص القردة.

أمام الغزلان لم يكن ثمة أحد.

8

على رصيف الحديقة المطلة على النيل، أقعد، أتناول عرنوس ذرة، مذاقه لذيذ جداً، هو مشوي بهدوء فوق جمرات الفحم، أين سأضع بقية العرنوس؟ أتلفت حولي، أرى سلة قمامة معلقة إلى عمود المصباح، أذهب إليه، أرمي بقية العرنوس في السلة، فيسقط من أسفلها فوق كومة من قمامة.

9

أستمع وأنا في حافلة الفوج السياحي إلى تلاوة للقرآن، ذكر لي السائق أنها بصوت الشيخ عبد الباسط الصمد، أشعر بإيقاع سلس، وانديا‌ح نغمات هادئة تملأ الأكوان، وترسخ في وجداني بعض الألفاظ، وتنجلي في روحي خطوط ذات إيقاع آخر هادئ، كأنه شذى الزنابق أراها مرسومة على جدار جامع محمد علي، وأسير في الشارع، وأسمع اللغط ونداء الباعة والأصوات، فأجد الإيقاع مختلفاً جداً. هل ذلك الشيخ الذي يتلو القرآن هو مصري؟

10

بعد زيارتي لخان الخليلي والحسين والموسكي ومروري بمقهى الفيشاوي قلت في نفسي:

ـ من القليل أن يكون في مصر نجيب محفوظ واحد.

11

مارجريت تسأل كريستين:

ـ ما الذي ينقص القاهرة؟.

وتجيبها على الفور:

ـ المطر.

12

يسألني السائق:

ـ ما رأيك بالأهرامات؟

فأجيب:

ـ أعجبتني كثيراً، ولكن أزعجتني السائحات شبه العاريات.

13

ينهض على الطرف الأيمن فندق سمير أميس، وعلى الطرف الأيسر النيل هيلتون، كل منهما أعلى من الهرم، وهما يطلان عملاقين على النيل، ومن ورائهما، يقف مبنى صغير، يطل على النيل من فجوة صغيرة بين الفندقين، ولولا الحرس الخاص أمامه لما تنبه إليه أحد.

أسأل الدليل:

ـ ما هذا المبنى؟

ويرد:

ـ هذا اقترحته إنكلترة، هذا مقر جامعة الدول العربية.

14

ـ لا أعرف لماذا الكلمات الإنكليزية كثيرة في اللهجة المصرية؟ هل هم مثقفون إلى هذا الحد؟ حتى سائق الأجرة في كل عشر كلمات ينطق بثلاث كلمات إنكليزية.

15

ركبت في الحافلة الكهربائية (الترمواي) وأخذت تسير بي وهي تتهادى وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال، لم يكن لي مكان أقصده، غايتي رؤية القاهرة وأنا في مقعدي.

انطلقتْ من ميدان رمسيس وأخذتْ تسير في شوارع كنت مررت ببعضها من قبل، ثم أخذت تمرّ بشوارع لا أعرفها، واسعة طويلة عريضة ممتدة، تنهض على جوانبها أشجار باسقة، ترتفع وراءها عمارات حديثة، وتمتد على أطرافها محلات فاخرة، مظاهر الغنى والترف بل البذخ واضحة، ثم مرت بشارع فيه زحام.

تذكرت ما قاله لي عوض عن الزحام في العتبة، فسألت قاطع التذاكر:

ـ هذه هي العتبة؟

ضحك، ضحك كثيراً، كاد يغمى عليه من الضحك، حتى إن كل الركاب أخذوا ينظرون إليه، وإلينا بفضول.

قال:

ـ العتبة في الاتجاه المعاكس.

16

في مدخل مسرح الجمهورية يعترضني شاب بزيه الرسمي وهو يقول:

ـ ممنوع التصوير في الداخل، أعطنى الكاميرا، والهاتف الجوال.

قلت له:

ـ أعدك لن أصوِّر، والعرض نفسه موجود في شبكة الإنترنت، وقد رأيته ليلة أمس، وهو مترجم إلى الإنكليزية، ولكن أحببت رؤيته في عرض حي.

قال بإصرار:

ـ هذه هي الأوامر.

ما كنت أعرف أني حاد المزاج إلى هذه الدرجة.

مزقت البطاقة أمامه، أدرت ظهري ومضيت.

17

في المترو، نهض شاب من مقعده وقال لي:

ـ تفضل، اقعد.

احمرّت أذناي، هكذا أحسست، وفار الدم في وجهي، ولكن لم أجد مناصاً من القبول.

18

لا شيء يشبه القاهرة سوى الكشري.

19

أشاهد في التلفاز ندوة يشارك فيها كبارالمسؤولين والمثقفين والمفكرين حول ثورة 23 يوليو 1952، أثورة هي أم حركة أم انقلاب؟، ويثار فيها الجدل حول شخصية عبد الناصر، هل كان ديكتاتورياً؟

بالديموقراطية الآن تناقش قرارات ومواقف اتخذت قبل ستين عاماً.

20

فكرت في شراء الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ، ولكن بعد أن عشت في القاهرة، لم تعد ثمة ضرورة لقراءة نجيب محفوظ.

21

سألتني مارجريت:

ـ أنت زرت أسطنبول وبيروت وباريس كما حدثتنا، واليوم تزور القاهرة، فأي المدن أجمل؟

قلت لها:

ـ لا تسأليني أي المدن أجمل؟ اسأليني أيها أحب إلى قلبك؟.

وقبل أن تسأل أجيبها:

ـ الأحب إلى قلبي والأجمل: أكستر.

22

منذ عشر سنوات قرأت بحثاً لكاتب فرنسي خلاصته أن الفقر والجوع والتخلف ظواهر منتشرة حيث ينتشر الإسلام.

يومئذ شككت في الأمر، واليوم لا مجال للشك.

23

اشتريت ثلاث صحف مصرية بالإنكليزية أتصفحها، أقرأ العناوين العريضة، أقرأ بعض التحقيقات، بعض المقالات، الشارع مختلف.

24

أرد إليه كوب العصير فارغاً، فيسألني بإنكليزية ضعيفة:

ـ عندكم في إنكلترة قصب السكر؟

أجيبه:

ـ لا.

فيهتف:

ـ عشت يا مصر، والله أنت أم الدنيا، زيك مافيش.

25

في كل ركن، عند كل منعطف، كالمقاهي الكثيرة، تنتشر مطاعم فخمة أنيقة، مطاعم عادية رخيصة، وعلى العربات، في الطرقات، في مكل مكان، وفي كل حين، وفي كل وقت، تجد بائع كشري. في العتبة بائع الكشري، في مصر الجديدة إلى جانب ماكدونالدز بائع الكشري. على الرصيف تجد جامع

القمامة، وهو يتناول الكشري من علبة يحملها بيديه القذرتين. في سيارة واقفة عند سفح المقطم أمام قلعة صلاح الدين، تجد أسرة، داخل السيارة، كل منهم معه علبة، وهو يتناول الكشري. على كوبري عابدين، تجد شاباً وشابة يسيران معاً، بيد كل منهما علبة، وهما يتناولان معاً الكشري.

الكشري هو الكشري.

26

على المائدة التبولة والسلطة والخس الأخضر والفجل الأحمر، وأعواد خشبية ناعمة التف حولها الكباب المشوي، وإلى جانبه إبريق اللبن الرائب، وصديق يترجم لي أغنية فيروز وهي تشدو:

بعلبك أنا شمعة على دراجك

نقطة زيت بسراجك

لا أنساها، دعوة صديق لي في بيروت.

27

الحافلة تنساب بنا في طريق تنحدر بهدوء، على الطرف الأيمن واد هادئ، والأشجار تظلله، وأمامنا بلدة ناعمة، أسقف البيوت قرميدها أحمر كأنه شعر صبية حسناء، ننحدر إليها كأننا ننزلق بين نهدين عطرين. لا أنساها، زحلة.

28

الأضواء ساطعة، الجدران بيضاء نقية، المرايا لامعة، الموائد ممتدة صفوفاً صفوفاً، في مدخل المطعم نضدت أوعية كبيرة، وقف وراءها الطاهي بقلنسوة بيضاء، وبيد رشيقة، غرف من الوعاء الثاني، من الثالث، من الرابع، من الخامس، غرف بملعقة كبيرة من وعاء سادس، غطى العلبة، وضعها في كيس، وضع إلى جوارها ملعقة صغيرة، وضع كيسين صغيرين، ونفحته جنيهاً. يعمل باجتهاد، بمهارة، برشاقة، كأنه يصوغ الفضة أو الذهب، يعمل بسرعة، كأن ورائي حشداً من المنتظرين. وكسائر الناس، أبيت إلا أن أقعد

على ناصية الرصيف. فتحت العلبة: بضع حبات من الحمص المسلوق، فوق صلصة الطماطم، تحتها شرائح من البصل المحمر حتى الاحتراق، ثم طبقات من المعكرونة الناعمة والخشنة والكبيرة والصغيرة، تتخللها حبات من العدس الأسود المسلوق، في الكيس الصغير قليل من الشطة السائلة، في الكيس الآخر قليل من الحمض مع الثوم. سكبت ما في الكيسين، وبدأت ألتهم بالملعقة المزيج، رائحته وحدها الشهية، سخونته الحارقة، وحدها اللذيذة. كأنك تضاجع امرأة بدينة لاحمة، جسدها له عبق فاغم. ذلك هو الكشري.

29

ـ اليوم سنتناول غداءنا في ماكدونالد.

هكذا قال لنا الدليل، فقالت له مارجريت:

ـ بل نريد تناول الكشري.

ووافقها أعضاء الفوج.

30

الرايات تعلو تخفق رفرافة، السيارات تنطلق في الشارع مرسلة أبواقها، من نوافذ السيارات يمدون أيديهم حاملين الرايات خفاقة، فوق أسطح الحافلات يهزجون يهتفون، لا أعرف ما الذي يجري؟ أسأل السائق عوض، فيقول:

ـ يحتفلون بفوز فريق كرة القدم.

31

ريد هوم، هابي تايم، بيوتي تاش، فور يو، إفري دي، بلاك كات، سنتر المدينة، إفري ثنك، فريدوم، محلات تريومف، فور فلورز، هذه بعض أسماء المحلات في القاهرة.

32

قلت لعوض: هل تعلم أن في موضع بناء جامعة الدول العربية كان هناك ثكنة عسكرية للإنكليز؟.

فقال: ولكن الأرض عربية.

قلت له: وهل تعلم أن إنكلترة هي التي اقترحت إنشاء جامعة الدول العربية؟.

قال لي: المهم أنها جامعة عربية.

33

في باب الشعربة تمثال صغير ناعم لرجل قاعد على كرسي، مررت به مرات، كنت أشفق عليه، من ضآلة حجمه، كأنه دمية، وهو ينتصب في ساحة كبيرة، تغص بالباعة والعربات والسيارات إلى درجة الاختناق، سألت عنه عوض، فقال:"هو تمثال محمد عبد الوهاب"، تذكرت طعام الغداء في شقة صديقي الشامي، والأغنيات التي أسمعني إياها في الشرفة.

34

يحضن العود إلى صدره، يحدب عليه، يداعب أوتاره، كأنه يمسح شعر حفيده، ويغني، الياسمين الأبيض يسَّاقط من فوديه، الدمع الأسود يتحدَّر في صدره، الستون تنسل من بين أنامله، شمس الغروب تطل من حدقتيه، النغم ينثال من جسده الراعش، يغني جراحاً لا يراها أحد.

يغني كلماته وألحانه، يغني صوته، يغني ويعزف من غير إضاءة ولا مكبرات صوت ولا جوقة تردد معه، يغني ويعزف لعشرة مستمعين أو عشرين، كأنه يغني للملايين، يغني ويعزف على مسرح صغير صغير، أصغر من غرفة أي مدير، ولكنه يغني في مسرح فسحته الكون كله.

أستمع إليه وهو يعزف في السفينة الفرعونية، وهي تعوم بهدوء سابحة فوق النيل، وأفواه الرواد في مطعم السفينة تمضغ اللقم.

35

سمراء كحيلة، ممشوقة القوام، أنيقة، اختارت الألوان الزاهية، لتتألق سمرتها المصرية، ألقت على كتفها شالاً كقوس قزح، ارتقت المنصة رافعة الرأس، مرسلة الشعر مثل خيمة عطر، وراء المنبر برز صدرها الممتلئ،

فارعة الطول، الشعر ينثال من بين أناملها وهي تنشد، البوح في صوتها فراشات ترف.

لم أفهم شيئاً مما قالت، ولكن الإيقاع لا يمكن أن أنساه.

شاعرة لا أتذكر اسمها، أنشدت لنا في السفينة الفرعونية.

36

على الرصيف أراه ممدداً، أميت هو أم حي؟ أهو مجرد ثياب قذرة ملقاة على الرصيف، أم تراها محشوة بإنسان؟ ثمة قدمان متسختان، ثمة رأس أشعث، إلى جانبه قطعة خبز، هو إنسان إذن.

تحت قدميه مقهى ريتش، إلى جانبه مطعم جروبي، وراء رأسه مكتبة مدبولي، وتمثال طلعت حرب.

37

في محل مجاور لتمثال طلعت حرب وقفت أمام واجهة زجاجية أتأمل ربطة عنق، أحاول التأكد من السعر المعلن إلى جوارها، مئة وخمسون جنيهاً، تعادل ثلاثين دولاراً، هي ليست غالية بالنسبة إلي، ولكن هل يستطيع المصري شراءها؟

38

داخل غرفة مكيفة الهواء وفي صندوق زجاجي شفاف نظيف يرقد رجل ميت، جسده محاط بلفائف بيضاء، رؤيته تكلف الزائر ستين جنيهاً، أربعين يدفعها للدخول إلى حجرته، وعشرين يدفعها عند باب متحف القاهرة، هو الفرعون رمسيس الثاني أو لعله الأول، أمعاؤه محفوظة في صندوق من مرمر شفاف.

كائن حي ملقى على الرصيف في القرن الحادي والعشرين في عاصمة الثلاثين مليوناً تمر به آلاف الأقدام العابرة، ربما رمى له أحدهم بربع جنيه.

رؤيته لا تكلف شيئاً، فما هو بفرعون، هو إنسان ينتمي إلى القرن الحادي والعشرين، يعيش على رصيف في طلعت حرب، بالقاهرة.

39

علمت أن في القاهرة مستشفى كبيراً لمعالجة القطط والكلاب، وأن في المستشفى فندقاً فخماً للعناية بتلك الكائنات اللطيفة، فرحت للخبر، فهو دليل رقي وحضارة، ولكن ساءني أني علمت به متأخراً، كنت أحضرت معي كلبنا "هارت"، لا يمكن أن أنساه، هو حفيد الكلب "موغي".

40

عربة خشبية قديمة، تقف إلى جانب الرصيف، في ميدان رمسيس، لعل عمرها أكثر من مئة عام، عجلاتها غليظة جداً، لها من ثلاثة أطراف رفوف خشبية ضيقة، ليست نظيفة، فيها بقع من بقايا طعام، يلتف حولها رجال ونساء، وهم يغمسون في صحون صغيرة قطع الخبز، ليلتهموا حبات فول صغيرة، والبائع وراء العربة منهمك في ملء الصحون بالفول، وأمامه جرتان من نحاس أبيض، وبيده مغرفة ذراعها طويلة، وهو يعمل بطريقة آلية ممتعة فيها نشاط وحيوية، تدل على سروره بالزبائن وشعوره بأنه يبيع ويكسب الجنيهات.

ولكن آلمني كثيراً الولد الذي بجواره، فهو يأخذ الصحون النحاسية الفارغة، ويغسلها بقليل من الماء، يغرفه من وعاء إلى جانبه، ويناولها للمعلم الذي ما يلبث أن يصب فيها الفول ثانية، وربما كانت بقايا من فول ما تزال عالقة بها.

41

عربة صغيرة، فيها كومة من حبيبات صفراء ذهبية تلتمع كالذهب، وحولها قطع ليمون، وعلبة فيها بهار وكمون، وقُلّةٌ فخارية ناعمة جميلة جداً، يرشح منها الماء، سألت البائع: "ما هذا؟"، وعلى الفور تناول وريقة صغيرة، طواها على شكل قمع، ملأها بتلك الحبيبات، رش فوقها قليلاً من البهار والليمون، عصر فوقها نصف ليمونة، ناولني إياها، وهو يقول:"ترمس، ترمس بدلي"، تذوقته، هو شهي، لذيذ، فيه قليل من المرارة، وقد مازجها

الحمض، قال لي وهو يشير إلى رأسه ويحاول أن ينطق بعض الكلمات بالإنكليزية:"فيه فوسفور، يفيد الدماغ"، سألته: "كم سأدفع لك؟"، قال وهو يشير بيده:"ربع جنيه"، سألته:"هل عندك عيال؟"، رفع أمامي راحة يده، وهو يباعد بين أصابعه الخمسة، ناولته جنيهاً، تركت له البقية.

كم يجب أن يبيع في اليوم ليكسب قوت عياله؟

نوافذ على الذات

1

أستلقي في السرير لأنام، أسمع وقع خطواتك، حفيف ثوبك، وفي الفجر الباكر أستيقظ، أشم على الوسادة شذى شعرك، متى تأتين إليَّ؟

2

لا أكاد أصدق، ثلاثة أيام مرت، كيف عشت بعدك؟ كيف آكل وأشرب وأنام؟ لا أصدق؟ أنت معي، في كل خطوة، في كل ركن، أنت خفق قلبي، دم شرياني.

3

لن أغفر لك، لن أسامحك، كيف اخترت البعد عني؟ عندما أرجع إلى أكستر سأنتقم منك، سأثأر، ألومك، أعاتبك، أقيد يديك بيدي، أقيد قدميك بقدمي، بل سأطلق يديك، وقدميك، سأسامحك، سأشبك أصابعي بأصابعك، لكي لا نفترق أبداً.

4

أرى نساء كثيرات، ولكن لا أراك، أين أنت؟

5

هل هذه هي الحياة، لا يمكن أن تصفو، ولا بد في النهاية من أن نفترق؟

6

المراكب في النيل تمشي، والسيارات فوق الكوبري تنطلق، والصحون في المطاعم تفرغ وتمتلئ، والنقود بين الأيدي تتداول، والأطباء في المشافي يعملون، والباعة على الأرصفة يتخاصمون، هل هذه هي الحياة؟

7

الحياة فقط هناك بين يدي اثنين، يقفان على الجسر، يطلان على النيل، يقضمان معاً عرنوس الذرة. بين يدي اثنين فقط، أصابعهما متشابكة،

أرواحهما متحاورة، كل منهما يحس بذاته من خلال وجود الآخر معه، الحياة بين يدي اثنين فقط: رجل وامرأة، أنت وأنا، ولكن أين أنت؟.

8

أي جنون هذا؟ لا أكاد أصدق؟ أنا بنفسي أحجز لك تذكرة إلى شرم الشيخ، وأحمل حقيبتك، وأنتظر في مطار القاهرة حتى تقلع طائرتك؟ كيف ودعتك؟.

9

جسدي كصحراء الجيزة، مفتت مثل رمالها، متشقق متهدم، حجارته متداعية مثل أهراماتها، أنفي محطم كأبي الهول، لم أذق المطر منذ آلاف السنين المجدبة، كم أنا مشتاق إلى سائحة عارية، تطوف في أرجائي، ليس من سائحة سواك ياغالية.

أنت السائحة والأميرة والملكة والمالكة، أنت إيزيس، أنت عشتار، أنت أفروديت، أنت السائحة الوحيدة.

10

في الحافلة المتجهة إلى ميدان رمسيس وقفت أمامي صبية سمراء، أمسكت مسند المقعد أمامي، وقفت قربي، عطرها أسود ثقيل، ساعدها أسمر ممتلئ، نهداها مندفعان كخيمتين تكادان تظللاني، دفئها يغزوني كالحمى، ولكن لست أدري لماذا أنا في المقعد خاسئ منكسر حسير، رخو متهدل مثل أذني كلب شائخ مريض، لو جئت إلي في القاهرة يا غالية لوجدتني مثل أذني حصان.

11

مرة واحدة فقط شربت عصير المانجة، غصصت بكأسي، لم أكملها، كادت الكأس تسقط من يدي، لم أذقها بعد ذلك، تمنيت لو كنت معي لنشربها معاً، هي شهية جداً، كيف أشربها وحدي؟.

12

أنت حاضرة، القاهرة غائبة، أنا لا أعيش في القاهرة، أنا أحيا هنا معك.

13

في زاوية المرآة، ألصق سائق الحافلة السياحية قصاصة صغيرة جداً من جريدة، أسأله:

ـ ما الخبر الذي تحمله هذه القصاصة؟

يضحك، يجيبني:

ـ هي قصيدة لشاعر من مصر، اسمه عبد الستار سليم.

ثم يناولها للدليل، ويقول له:

ـ ترجمها للمستر إدوارد، لكل الفوج السياحي.

الدليل يقرأ علينا:

النيل مسافر من زمان زي الزمان
بين الجنادل تجرحه
لكن عارف مطرحه
وتسيل دموعه في الغيطان
ويلمها ساعة الحصاد حزمة عيدان
النيل ده عمره
ممكن يطول بي السفر
ممكن يعوِّق سكته مليون حجر
ممكن يتوه ممكن يلف
المستحيل أنه يجف.

14

قطة صغيرة، صغيرة جداً، تموء، تموء، وهي لصق الجدار، تمر بها الأحذية، ولا أحد يلتفت إليها، يضيع صوتها في صخب السيارات والضجيج، لست أدري ما الذي جاء بها إلى مدخل الفندق.

15

زوجتي وأمي وأختي وصديقتي أنت، متى أشم ريحك؟ متى ألثم ثغرك؟ متى أقبل رأسك؟ متى أستمع إلى صمتك الحنون؟ بعد اليوم لن نفترق.

16

لماذا القطط العجفاء في شوارع القاهرة كثيرة؟ لماذا المقاهي في شوارع القاهرة كثيرة؟ لماذا الناس في شوارع القاهرة كثيرون؟ لماذا أنا في شوارع القاهرة وحدي؟

17

أنت النغم، أنت النيل، أنت القاهرة، كيف تركتني وحدي، ياغالية؟.

18

نعبر الشارع خائفين، خوف واحد يسري في عروقنا معاً، أشدك من يدك، تركضين إلى جواري، أحس موسيقا صدرك، أقول: لك لا تفزعي، تمسكين يدي ونحن ندخل في صخب السيارات وزحامها، لا ننتظر إشارات المرور، تقولين لي: انتبه، لا تستعجل.

هكذا كنا معاً العام الماضي في أسطنبول.

والآن أقف ساعات، كالجبان، لا أعرف كيف أعبر الشارع، من سيأخذ بيدي؟ بيد من سآخذ؟.

19

المحارة اللؤلئية البيضاء النقية الوحيدة التي أختبئ فيها هي أنت، اللقمة الناعمة الهنية الوحيدة التي آكلها، هي أنت، أختبئ في صدرك، تختبئين في صدري، ولكن أين أنت؟

20

سأحضر لك معي النيل والأهرامات وأبا الهول، سأجمع كل التماثيل المنصوبة في ميدان الأوبرا وطلعت حرب وإبراهيم باشا وسعد زغلول وأضعها كلها أمامك.

أنت وحدك النيل والأهرامات والساحات، القاهرة فيك أنت، في ثغرك، في صدرك، وتحت الإبطين، وفيما بين النهدين.

لن أغادرك، لن تغادريني بعد اليوم.

21

غداً سنرجع إلى أكستر.

سأبقى بقربك، ألتصق بك، سبع ليال وثمانية أيام، أنام في حضنك، أرتوي من ثغرك، لا أغادرك.

22

كنت جزءاً من جسدي، كنت جزءاً من جسدك، رشفت رضابك، رشفت رضابي، خلاياي تكونت من خلاياك، اتحدت خلايانا، توحدت فينا الدي إن إي. خلاياي بحاجة إليك، أنا مثل زهرة عباد الشمس، أنتظر بزوغك، أنا مثل جذر، أحتاج إلى تربتك، أنا مثل السمك، أحتاج إلى مائك، من غير ماء لا حياة للسمك، من غير بحار لا سحاب، كيف يتكون السحاب من غير بحار؟ مرة أخرى لن يفرقنا سوى الموت، ما أجمل أن نموت معاً.

23

الطائرة كانت دائماً حلمي، أراها تمر فوقي، أرسل زفرة، أتبعها أنظاري، أشتهيها، أود لو أمتطيها، أكاد أعتصر جسدها، تغريني أنوثتها. اليوم ألعنها، وألعن صوتها، ما عدت أود ذكر اسمها، لأنها حملتك بعيداً عني.

24

اتجه السائق إلى نفق صلاح سالم، وضعت يدي على المقود، صحت به: " أرجوك، لا تدخل في النفق، أحس بشراييني تنفجر، كأن إبرة تدخل شرياني، وأنا أدخل فيه، أكاد أختنق".

لا أعرف لماذا اختلف إحساسي بالعالم، اختلفت مشاعري تجاه الأشياء منذ غادرتني وحدي.

25

لا أدري ما الذي انتابني بعدك، صخرة أنا، رمال مبعثرة، طائر منتوف الريش، لا أدري ولا أحس ولا أسمع.

كل شيء جميل، كل شيء مشتهى، معك أنت وحدك.

26

هكذا هي الصور والحكايات والحياة، مثل هذه الكلمات.

مبعثرة مبعثرة مبع ثرة مب ع ثر ة مـ بـــ عـ ثـ ـر ة.

27

انكسار أول وثان وثالث ورابع، انكسارات انكسارات، انكسارات كثيرة عشتها، منذ الطفولة إلى اليوم. سفرك وحدك أنساني كل ما عشته من انكسارات، سفرك وحده هو الانكسار الأكبر.

28

صورتك معي، صوتك في قلبي، صمتك في شرياني، طيفك في كل مكان، ولكن الأجمل لو كنت معي.

29

لم يكن مخطئاً أوديب، سفرك وحدك هو الخطأ الأكبر.

30

هل أكتب اسمك على الورق؟ الحروف تحملني إليك، تأتي بصوتك إلي، ألمس فيها يدك، هل ترين شفاهي تلثم اسمك؟ هل تسمعين صوتي وأنا أناديك؟ أطوي الورقة، أخبئها في صدري، أخبئها تحت الوسادة، ما أجمل العشاق الصغار، والعجائز، ما أجمل الجنون.

31

أطل من الشرفة، أراها نائمة في حديقة الفندق، تحت ظل شجرة، متمددة باسترخاء، مثل ظل لا تحس به يتحرك، تأكل أي شيء، يكفيها أنها تتنفس، ما أسعدها من حياة تحياها، تلك القطة الصغيرة.

ولكن، لا أريد أن أحيا مثلها.

32

أود لو كنت نحاتاً، موسيقياً، رساماً، شاعراً، مطرباً، ملاكماً، صياداً، متسلق جبال، لاعباً في سيرك، لأعبر لك في كل الأشكال عن حبي، شكل واحد من التعبير لا يكفي، كل أشال التعبير لا تكفي.

33

حين ابتعدت عني، ابتعدت عني الأشياء، انفصل الكون عني، صرت معلقاً بين الأرض والسماء، النيل والقاهرة والناس كلهم في الخارج، بعيدون عني لأنك بعيدة عني.

34

كنت أظن أن العالم الكبير هو عالمي، كنت أظن أني أملك القمر والشمس والنجوم، كنت أظن أني أنا كل شيء، أنا ملك، أنا قائد، أنا أمير، واليوم اكتشفت أن ذلك كله كان صحيحاً حقيقياً كاليقين، لأنك كنت معي. واليوم أنا لا شيء، لأنني وحدي، لأنك لست معي، أنت وحدك عالمي، سأعود إليك، أو تعودين إلي.

35

زوجة، أم، أخت، ابنة، صديقة، عشيقة، خليلة، أنثى، النصف الأول والآخر، شريكة العمر، كلها مصطلحات فقيرة، لا تكفي للتعبير عن شوقي إليك، لا تكفي للتعبير عن دفء يدك عندما تعانق يدي ونحن نعبر الشارع معاً، لا بد من البحث عن مفردات أخرى، يكفي الآن أن أقول: أنت.

36

عندما أكون في مطعم الفندق، أتناول طعام الغداء مع أعضاء الفوج، أشعر بشيء من الخيانة، أتمنى لو كنت معي.

37

لست غبياً، ولا أعمى، أعرف أنك لست الأذكى ولا الأجمل ولا الأحلى ولا الأكثر رشاقة ولا الأكثر إثارة، ففي كل يوم ألتقي كثيراً من النساء، في

المستشفى وفي الشارع وفي الحافلة، وفيهن من هي أجمل منك، أو أحلى، أو أذكى، أو أكثر إثارة، أو أكثر رشاقة، ومن الممكن أن أتعرف اليوم إلى هذه، وغداً إلى تلك، وأقيم ما أشاء من علاقات، ولكن مع ذلك لا أفعل، أنت الأقرب مني وإليَّ، أنت جزء مني وأنا جزء منك، أنت اختياري.

38

وأنا بعيد عنك تفتحت موهبتي، بدأت أكتب، كأنني أصبحت شاعراً، لا، لا أريد، لا أريد أن أصبح شاعراً، ولا كاتباً، ابْقَيْ إلى جانبي، ولتذهب الكتابة إلى الجحيم.

39

حضورك هو الإبداع، يكفيني أن أعيش معك.

40

عشقت القاهرة، لأنك فيها كنت معي، لأنني فيها كنت معك، لأننا فيها كنا معا.

إليك، أنت، أيتها الغالية.

ضياع... في مطار القاهرة الدولي

"....وجعل بينكم مودّة ورحمة"
القرآن الكريم

أودّع صديقي عوض، أقول صديقي، ولا أقول السائق، هو حقيقة صديق، رجل طيب، على الرغم من الفقر، تبدو الأخلاق هنا أقوى من الفقر، هو مجرد سائق، السيارة ليست ملكه، هكذا حدثني ونحن في الطريق إلى المطار، لا يكاد يحصّل في اليوم أربعمئة جنيه، عليه أن يملأ خزان السيارة بالوقود، ويضيف إليها الزيت، ويعطي يومياً للمالك ثلاثمئة، وما تبقى له، فهو أجرته، سواء أكان خمسين أم خمسمئة، وأي حادث تتعرض له السيارة فعليه التصليح، وأي مخالفة مرورية عليه دفعها.

هو أسمر قصير بدين بطنه مدورة مثل كرة، تكاد تمس المقود، أظنه لا يأكل غير الكشري، يكثر من شرب الشاي، أسنانه صفراء، مسودّة، نخرة، كان يدخن كثيراً كما حدثني، ولكنه امتنع عنه بأمر من الطبيب، هو دون الخمسين، قبل عامين أصيب بنوبة قلبية، فمنعه الطبيب من التدخين، زوجته تعمل في محل للبقالة، عنده ولدان في المرحلة الثانوية، وأربع بنات، واحدة منهن متزوجة، تعمل ممرضة لتعيل زوجها، وثلاث أخريات مازلن طالبات في الجامعة، المجتمع المصري فقير، يزداد عدد سكانه بتصاعد، وهو ينمو اجتماعياً وثقافياً ويتطور، ولكن ببطء شديد.

عوض هو السائق الذي طلبه الصديق الشامي يوم الثلاثاء مساء ليوصلني إلى الفندق، ودفع له الأجرة سلفاً، هو اليوم الثاني من أيام زيارتي للقاهرة، هومن أجمل الأيام، طلبت ليلتها من عوض أن يوصلني إلى النيل، لا إلى الفندق، في الطريق تعرفت إليه، استغرقت الرحلة من مكرم عبيد إلى النيل

نصف الساعة فقط، في حين استغرقت الرحلة في الحافلة ساعة ونصف الساعة، غادرت مكرم عبيد في الثامنة والنصف، عند التاسعة كنت أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون، قاد عوض سيارته فوق كوبري 6 أكتوبر، كما حدثني، وكان يصف لي الطريق خطوة خطوة، أو متراً متراً، أخذ يصعد فوق الكوبري بدءاً من امتداد رمسيس بعد قبر السادات، ومرّ فوق عمارات الضباط، وفوق العباسية، وفوق ميدان رمسيس، ثم إذا نحن في ميدان عبد المنعم رياض.

ـ كوبري ستة أكتوبر طوله حوالي عشرين كيلو متراً يمتد من الدقّي إلى امتداد رمسيس حيث بدأنا نصعد فيه، وهناك الآن مشروع مترو من أرض المعارض إلى مصطفى النحاس، نحن اجتزنا تقريباً عشرة كيلو مترات، بدأ العمل في كوبري ستة أكتوبر عام 1969 وانتهى عام 1999، توقف العمل فيه عشر سنوات بسبب حرب تشرين عام 1973 والضائقة الاقتصادية التي مرت بها مصر.

ـ معلوماتك، يا عوض، دقيقة وموثّقة بالأرقام والتواريخ.

ـ وأستطيع أن أقول لك كم كلّف وكم مدخل إليه وكم منفذ منه، أولاً أنا ابن القاهرة، أعرف كل حبة تراب فيها، وثانياً أنا سائق أعمل على طول القاهرة وعرضها.

طلبت منه أن أنزل أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون، وكانت الساعة قد أصبحت التاسعة والنصف، عرضت عليه مبلغاً من المال، قال:

ـ لا، الأستاذ الشامي صديق عزيز، وهو يأتي دائماً إلى القاهرة، وقد أعطاني الأجرة كاملة، وحبة زيادة، أنا بخدمتك، هذا رقم هاتفي الجوال، اتصل بي في أي ساعة تشاء، وأنا أجيء إليك على الفور.

من أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون نزلت على درج هابط على ضفة النيل نحو النهر، حيث تقف هناك زوارق كثيرة، وهي مزينة بأضواء ملوّنة، وعلى الفور استقبلني شاب أسمر، ودعاني إلى زورقه، وقعدت على أرائك صفت

على جانبي الزورق، لها وسائد مريحة، كان في الزورق أكثر من عشرة ركاب وكان علينا أن ننتظر حتى تمتلئ الأماكن.

ومع انطلاق الزورق انطلقت من مكبر الصوت الأغاني الصاخبة، ضجيج وصراخ، ونهض بعض الشباب وأخذوا بالرقص، والزورق يطوف فوق النيل، ويمر من تحت الجسر، وعلى جانبي النيل تنهض الفنادق الفخمة، الشيراتون والنيل هيلتون ورمسيس وغراند حياة، ويظهر جانب من جامعة الدول العربية، ويطل علينا برج القاهرة بأضوائه الملونة، وعلى الطرف الغربي من النهر ترسو عدة سفن كبيرة هي مطاعم ثابتة، منها النيل والسرايا، وهي ترسل أضواءها الملوّنة، مهرجان من الأصوات والأضواء، هنا في القاهرة لا يمكن حقيقة أن تمل.

موجات النهر تترقرق هادئة، كنت أظن أمواجه سريعة الحركة، وإذا هي هادئة، كنت أتمنى لو أستمع إلى الأغنيات التي أسمعني إياها الصديق الشامي، أغنية "كليوبترا" وأغنية "النهر الخالد"، حاولت استرجاع إيقاعها فلم أستطع، الصخب والضجيج والصراخ هي الإيقاع الغالب على الرغم من أن الزورق يتهادى على مهل فوق صفحة النيل، وسرعان ما انتهت الجولة.

سرت على مهل على طول الضفة، باتجاه جسر قصر النيل، سرت على الضفة اليمنى من الجسر، حتى بلغت حديقة الجزيرة، الساعة الآن العاشرة والنصف، لا أريد أن آوي إلى الفندق، الحديقة جميلة جداً ونظيفة، روادها كثر، ولاسيما من الشباب والصبايا، وهي تطل على النيل مباشرة، لا يفصلها عنه سوى سور منخفض لا يزيد ارتفاعه عن نصف المتر، فيه أحواض لزهور حمراء جميلة متفتحة، يقعد بعض العشاق على حافة السور ليلمسوا النيل بيدهم، ومن فوقهم القمر يرسل عليهم ضوءه، وقد بدا خافتاً أمام أضواء الفنادق الفخمة والإعلانات المتألقة، ومن المؤسف أن تجد علب الكولا المعدنية وبعض الزجاجات البلاستيكية الفارغة تعوم فوق النيل قريباً من السور.

ويدنو مني مصور، يعرض عليّ أن يلتقط لي صورة، ويَعِدُ بأنها فورية، ولكن أعتذر إليه، لوكنتِ معي، فيث، لكنا التقطنا صورة على سور النيل.

لا أعرف كيف أصبحت الساعة الثانية عشرة، أغادر الحديقة، وأسير عائداً فوق جسر قصر النيل، متوجهاً إلى الفندق، أسير على مهل، وببطء شديد، وبين خطوة وأخرى أتوقف قليلاً لأطل على النيل، مستنداً على السور الحديدي وحدي، مستقبلاً النسمات الصيفية الناعمة، كم كنت أتمنى، فيث، لو كنت بجواري لأضع يدي على كتفك، او لأطوق خصرك بيدي، كما يفعل العشاق الصغار هنا من حولي، أريد أن أعود إلى الفندق ولا أريد، لأنني في غرفة الفندق سأكون وحدي.

وهأنذا أمام المطار أودع عوض، ترى هل أعود يوماً إلى القاهرة وألقاه ثانية؟ سأحتفظ برقم هاتفه في جوّالي.

أصعد الدرجات إلى صالة المطار، والحقيبة الجلدية مشدودة إلى ظهري.

أين أنت؟ فيث؟ لا شك أنك في المقصف تحتسين كوب كبتشينو، أنت تحبين الكبتشينو.

أدخل إلى صالة المطار، معظم كراسي المقصف شاغرة، ليس ثمة زحام، بسهولة يجب أن أراك، ولكن لا أراك، هل أنت هناك على المقاعد العادية في الصالة؟ أنت لا تحبين مثل تلك المقاعد العادية، لا يمكن إلا أن تكوني في المقصف، وإلا فأين أنت؟ لم تمض سوى أربعة أيام، أو خمسة، وأنا بعيد فيها عنك، ولكنني اشتقت إليك، أكثر مما كنت أتوقع، لو لم يطلب مني مدير المستشفى قطع إجازتي والعودة إلى أكستر، لكنت غادرت القاهرة وجئت إليك في شرم الشيخ لأغوص معك في البحر، ونرى معاً الأسماك الملونة والشعاب المرجانية، حقيقة شمس الصحراء شقّقت جلدي وغدوت مفتتاً مثل رملها، أنا بحاجة إلى الماء، ولكن معك، لنغوص معاً في البحر، لا أنكر، أنت أشطر مني في الغوص، وأكثر مني صبراً على تحمل البقاء في الماء، والآن أين أنت؟

وأرفع الهاتف الجوال:

ـ فيث؟ مرحباً، أين أنت؟ أنا وصلت إلى المطار.
ـ أنا هنا في المقصف، أحتسي الكبتشينو.
ـ وأنا هنا، أمام المقصف، ولكن لا أراك؟!
ـ أنا هنا في الزاوية، لصق الزجاج، أطل على درجات الصالة، ما رأيتك، وأنت تدخل إلى الصالة؟
ـ في أي زاوية؟ أنا لا أرى أحداً؟.
ـ يا إلهي، وأنا لا أراك؟!.
هل جئنا إلى هنا ليُضِيعَ كلٌّ منا الآخر، هل يمكن أن نضيع في مطار القاهرة، هل نجوت من قرش البحر لتضيعي هنا؟ وهل خرجت أنا من صحراء الجيزة ولم أضع فيها لأضيع هنا في المطار؟ لا يعقل؟.
ـ فيث، أقترح عليك، أن تخرجي من المقصف، سأراك هناك في الطرف الآخر، عند الاستعلامات، تحت اللافتة الضوئية.
ـ أنا هنا، الآن، بجوار الاستعلامات، وعند اللافتة.
ـ هذا غير معقول؟ وأنا بجوار الاستعلامات، هناك شجرات نخيل، ثلاث شجرات، أنا بقرب الأولى.
ـ هنا عندي أيضاً شجرة نخيل.
ـ في أي صالة أنت، فيث؟.
ـ أنا في الصالة الثالثة.
ـ وأنا في الصالة الثالثة.
ـ كيف لا يرى أحد منا الآخر، الصالة كبيرة، نعم، ولكن لا يمكن أن يفقد فيها أحد منا الآخر؟ هل أنت متأكدة من أنك في الصالة الثالثة؟ لعلك في الصالة الأولى؟.
ـ لا، أنا متأكدة، أنا في الصالة الثالثة.
ما أضعتك قط يافيث، في زحام مطار هيثرو ما أضعتك، فوق جسر لندن ما أضعتك، في محطة قطار لندن ما أضعتك، هل يعقل أن أضيعك هنا؟ في

زحام شوارع إسطنبول وأسواقها القديمة ما أضعتك؟ حتى في المنام كنت أراك، أوه، الآن تذكرت، هذا الصباح استيقظت على حلم لا أعرف طبيعته، هل هو مزعج أم هل هو مريح، طفلة صغيرة، في الثالثة أو الرابعة من عمرها، تشبهك جداً، يافيث، بل تشبه ابنتنا ماري يوم كانت في الرابعة من عمرها، كأنها هي، ولكنها ليست هي، كنت أقبلها، وأكاد أرتشف رضابها، ولكن لا أعرف كيف تحضر جدتي فجأة، وهي تحدّق بي في غضب، كأنها تلومني أو تقرّعني أو تؤنبني من غير أن تتكلم، وينتهي الحلم فجأة، وأستيقظ وأنا غير مرتاح، في الواقع عارضت جدتي زواجي منك، لأنك من ليفربول، وأنا من أكستر، ولكنها في الواقع بعد الزواج كانت تحبك، وأنت تعرفين ذلك، وكانت دائماً تساعدك في تدبير أمور المنزل، وهي التي ساعدتك على تربية ابنتنا ماري، فيث صدقيني هي تحبك، كانت في الحلم تؤنبني، هي لا تريدني أن أقبّل سواك، حتى في الحلم، ولكن لا أعرف معنى تقبيلي طفلة في الثالثة من عمرها أو في الرابعة.

مرة أخرى أتصل بالجوال:

ـ فيث، أنا قلق، ولكن لست بالقلق أيضاً، أنا مطمئن إلى أننا سنلتقي، ولكن الأمر غريب، أكاد أضحك، ما دام الجوال معي ومعك الجوال، فلا يمكن أن نضيع، ومعي من الوحدات ما يكفي سنة، ومعك مثلها، أنا مطمئن، لا شك هناك خطأ ما، فيث، أنت في أي مطار؟.

ـ أوه، يا إلهي، الآن عرفت، أنا في الصالة الثالثة في المطار القديم، الطيار أخبرنا أن طائرة الرحلات الداخلية تهبط في المطار القديم، نسيت أن طائرتنا إلى أكستر تقلع من المطار الجديد، سامحني حبيبي، يالغبائي.

ـ لا، لست غبية، فيث، ولكن القرش أنساك كل شيء.

ـ لا، إدوارد، صدقني، أنت أنسيتني كل شيء، لا القرش، والآن ما الحل؟ هل يمكن أن أسير إلى المطار الجديد، وكيف سأجرّ على الأرض حقيبتي؟

ـ لا، حبيبتي، لا يمكن أن تسيري ثلاثة كيلو مترات، هناك حافلة خاصة بالمطار، تنقل الركاب بين المطارين، القديم والجديد، انتظريها أمام باب الصالة، كل عشر دقائق تمر حافلة، اقرئي الإعلان عنها بجوار الباب.

أهلاً حبيبتي، لا يمكن أن نضيع، لا يمكن أن يفقد أحدنا الآخر، نامي على كتفي، وادخلي في صدري، تعالي لأشدك إليّ، لن أدعك بعد اليوم تبتعدين عني، سنبقى معاً مثل توءمين سياميين، ليت كلاً منّا يلتصق بالآخر، أحس كأننا جئنا من رحم واحدة، كأننا انشطرنا من بُويْضة واحدة، وها نحن، ينضمّ كل منا إلى الآخر، يعود إليه، يدخل فيه، كم صدرك دافئ وحنون، هو أجمل من صحاري الدنيا كلها، ومن سهولها الخضر وروابيها وجناتها، لا بد أن أرتشف رضابك هنا بقبلة، لعلي أنسى النيل، أنا خوفو وأبو الهول وأنت شمسي وصحرائي وأنت النيل، بل فلتسقط القاهرة في النيل، ولتغص في مياهه، لن أعود إلى القاهرة بعد الآن، إلا إذا عدنا إليها نحن الإثنين معاً، لا أبالي بالمصريين ولا المسافرين ولا الناس جميعاً، فلينظروا إلينا، أعشق عينيك والابتسامة، سأقبلك، وليفعل الجميع مثلنا، أو فليسخروا منا، ليتك كنت معي هناك في الصحراء، لو جئت إلي في الصحراء لأصبحت أجمل، وصار الهرم أعلى وأكبر، لقبّلتك أمام أبي الهول، أو في ظل خوفو، لن يصدقوا أنك زوجتي، سيقولون هي عشيقة هذا الرجل الستيني الشائب، ولعلي أبدو أكبر من عمري، وليقولوا ماشاؤوا، أنت الزوجة والحبيبة والعشيقة.

ـ أمامنا أكثر من ساعة ونصف، سنمضيها هنا في المقصف.

ـ ياإلهي، ماذا جرى لي، كيف ضعت، الصالة هنا مختلفة كلياً، من هذه الصالة خرجنا عند وصولنا إلى القاهرة، كيف لم أتنبّه إلى اختلاف تلك الصالة عن هذه، هنا الصالة أكبر وأفخم.

ـ يكفي، فيث، لا تلومي نفسك، انسي الموضوع، منحنا الضياع ذكرى جميلة، صرنا مثل آدم وحواء عندما أُهبطا من الجنة إلى الأرض، أضاع كل منهما الآخر، ثم التقيا، سأطلب لك كابتشنيو.

ـ وأنت؟

ـ آه، أنا، شربت قهوة أعدها لي صديق شامي من حلب، سأسأل النادل إن كان عندهم هنا مثلها.

ـ أنا سأطلبها لك.

ــ لا، أخشى ألا تكون مثلها، لا يمكن أن أذوق مثلها، سأطلب قهوة فرنسية.

ـ ومن هو ذلك الشامي الذي سقاك تلك القهوة؟.

ـ أوه، سأحدثك عنه، تذكرين أني تخلفت عن الفوج، وبقيت معك هنا في هذه الصالة نفسها، انتظرت حتى أقلعت بك الطائرة إلى شرم الشيخ، انتظرت حتى الثامنة.

ـ نعم

ـ هنا التقيت برجل من الشام، أخبرته أنه محجوز لي مع الفوج السياحي في فندق غراند حياة، ودعوته إلى زيارتي، وطلبت منه أن يتصل بي، ووعدته أن أزوره.

ـ وما المناسبة، وكيف تعرفت إليه؟

ـ كان طوال الرحلة كتاب الدليل السياحي هذا بين يدي، حتى في الطائرة، وأنت بقربي كنت أقرأ فيه، تذكرين ذلك، وفجأة بعد إقلاع طائرتك افتقدته، بدأت أبحث هنا وهناك، لا أعرف كيف فقدته، ما عدت أذكر أين وضعته، كل شيء عن القاهرة موجود فيه، كل شيء، هو الدليل الأساسي في الرحلة كلها، وفجأة يتقدم رجل في الستين، في عمري، هو مسافر، أيضاً، ليس مصرياً، يكلمني بإنكليزية ضعيفة، يسألني: "هل فقدت شيئاً"، فأجيبه: "نعم، كتاب الدليل السياحي"، فيقول لي: "هو هناك، على المصطبة، في مكتب حجز سيارات الأجرة من المطار إلى المدينة"، يبدو أنني ذهبت إلى المكتب لأطلب سيارة أجرة توصلني إلى الفندق، فوضعت الدليل على المصطبة، ونسيته،

وأنت؟ أما نسيت رواية الشيخ والبحر؟ أنت أيضاً طوال الرحلة في الطائرة ما رفعت عينيك عنها؟

ـ لا يمكن أن أنساها، هذه المرة الرابعة التي أعيد فيها قراءتها.

ـ لعل القرش ظهر بسبب قراءتك لها؟

ـ لا أملّ منها، صدقني يا إدوارد، كلما قرأتها أكثر، استمتعت بالبحر أكثر، كم هو رائع هذا الرجل؟.

ـ همنجواي الكاتب أم سانت دييغو البطل؟.

ـ بل أنت يا إدوارد، هل تعرف أنك تشبه الإثنين؟.

ـ أنت تجعلينني أضحك، ما هذا يا فيث، لم أسمع منك هذا من قبل، أنا ناحل، طويل، لحيتي شقراء خفيفة، لم أسافر قط إلى غابة لأصطاد فيها، ولم أصارع الثيران، ولم أعمل على مساعدة الجرحى في حرب، مثل همنجواي، وهو بدين ممتلئ كث اللحية، وأنا لم أدخل وحدي في البحر بزورق، لأصطاد المارلين، وأصارع القرش، كل ما هنالك أنني قبل يومين ركبت في زورق صغير طاف بي ربع ساعة فوق النيل.

ـ أنت تشبه الرجلين في حب العزلة.

ـ العزلة، هذا غير معقول.

ـ عفواً إدوارد، أرجوك، لا تغضب مني، أنا لا أقصد العزلة، أقصد الوحدة، أنت تحب أن تخلو إلى نفسك.

ـ على كل حال، لو كان تفكيرك بي أنا حقاً لكنتِ نسيتِ أنت الرواية كما نسيتُ أنا كتاب الدليل السياحي.

ـ هل هذا يعني أنك نسيت كتاب الدليل لأجلي؟.

ـ صدقيني يافيث، أنت، يا فيث أنسيتني كل شيء.

ـ أنا أم القاهرة؟.

ـ بل أنت يافيث.

ـ أوه، أرجوك ارفع يدك عن كتفي، لا تداعب شعري هنا بهذا الشكل، الناس هنا لا يستسيغون مثل هذه المداعبات، بعد ذلك أنت لست شاباً، لا تنس أنك في الستين، سيظن الناس أنني عشيقة أو صديقة.

ـ بل أنت كل شيء، عشيقة وصديقة وزوجة، وليظنوا ما يشاؤون، حقيقة أنت تبدين أصغر مني بعشرين سنة، لا بست سنين.

أنظر في عينيك، فأرى مصر والدنيا كلها، أرى أكستر وجدّتي، آه، أيتها الحبيبة، كم أحب عينيك، في زرقتهما المتألقة البحر والسماء ونبضات قلبي وعمرنا كله، كم أسعد حين أخطف من عينيك هذه النظرة التي تعزف لي موسيقا العمر كله، أهديك عمري، وأجده أقل مما تستحقين، في قربك أجد الدفء والأمان، ويل لمن لا ينظر في عيني زوجتي.

ـ بل أنا أصغر منك بعشر سنين.

ـ المشكلة في أنك تصبغين شعرك بالأشقر، وأنا أتركه أبيض.

ـ يكفي هذا الآن، أخشى أن نختصم بعد قليل، حدثني عن ذلك الرجل الشامي؟.

ـ بل حدثيني أنت عن السائحة الألمانية، كيف نال منها القرش؟.

ـ لا حقائق عندي يا إدوراد، ولا أعرفها، ولكن سمعت أنها كانت سباحة ماهرة، وغطاسة ماهرة أيضاً، وأنها كانت تسبح ولو كان الموج عالياً، وتدخل في عرض البحر، لميل أو ميلين، وتغوص لأكثر من مئة وعشرين متراً، طبعاً بأدوات الغطس، وكانت حديث خبراء الغطس والمدربين أنفسهم، أنا في قناعتي أصيبت بعين حاسدة.

ـ أوه، فيث، أنت مؤمنة، وتصدقين مسألة العين والحسد؟

ـ هذا لا يتناقض مع الإيمان، ورد ذكر العين الحاسدة في "التوراة"، عندما ذهب إخوة يوسف إلى مصر أوصاهم أبوهم يعقوب ألا يدخلوا من باب واحد، خوفاً عليهم من أعين الحساد، ونصح لهم أن يدخلوا من أبواب عدة.

ـ أنا لست متخصصاً في الدين، بل أنا لست متديناً على الإطلاق، ولا أعرف هذه القصة، ولكن، لماذا لا تقولين إنه خاف من أن يلفتوا نظر الحرّاس إليهم، وهم غرباء؟

ـ صدقني إدوارد، مهما تقدمنا في العلم، يظل هناك مجهول نخافه، ونريد أن نعرفه، ولكن لا نعرف كيف، أنا هناك في شرم الشيخ رأيت بعض المدرِّبين على الغوص، وهم من المهرة، يحملون تمائم وتعاويذ، ويأتون بطقوس قبل أي عملية غوص.

ـ أنا لا أقتنع بهذا كله، وأراه منافياً للدين، مع أنني لست متديناً، على كل حال، كيف شرم الشيخ؟ وكيف المياه هناك والبحر؟.

ـ المياه نقية جداً والموج هادئ، الحقيقة أفضل منطقة في العالم للغوص هي شرم الشيخ، وهناك كما سمعت منطقة أجمل منها هي منطقة دهب على بعد مئة كيلو متراً جنوب شرم الشيخ، أو في شمالها، ما عدت أذكر جيداً، وهي صالحة جداً للغوص وركوب الأمواج والقفز بالمظلات، إذ تطل عليها الجبال، وهل تعلم أن الغواص العالمي نينو غوميز يأتي إلى هناك كل عام، سمعت أنه كان في شرم الشيخ قبل بضعة أشهر، وحاول تحطيم الرقم الذي دخل به موسوعة غينيز في الغوص إلى الأعماق قبل خمسة أعوام في عام 2005 على ما أذكر، وأظن أنه حقق تلك الغوصة في منطقة دهب؟.

ـ وما هو الرقم؟

ـ على ما أذكر أنه 320 متراً أو أقل قليلاً، لست متأكدة.

ـ وهل غوصه بأجهزة التنفس وأسطوانات الأوكسجين؟

ـ طبعاً، إدوارد، من غير أجهزة لا يستطيع الغواص أن ينزل إلى أبعد من 12 متراً ولا يستطيع أن يبقى أكثر من دقيقة، قليل جداً من الغواصين من يصل إلى عشرين متراً ويبقى حوالي أربع دقائق، وهل تعرف أن نينو غوميز في عمرك؟ هو من مواليد 1951 في جنوب إفريقية، وقد دخل اسمه في موسوعة غينيس.

الدم يغلي في عروقي، يزداد صعوداً إلى رأسي، أحس أن أذنيّ أصبحتا حمراوين.

ـ وأنا لو سجلت عدد العمليات التي أجريتها في قناة فالوب وعدد مرات غوصي فيه، بل ساعات عملي في غرفة العمليات والكمامة على وجهي، لكنت دخلت موسوعة غينيس قبله.

ـ أوه إدوراد، لماذا أنت غيور؟.

ـ لست غيوراً، ولكن هي حقائق.

ـ أوه، إدوارد، أرجوك لا تنفعل؟.

ـ عندما تقولين لي: لا تنفعل، فهذا يعني أني منفعل.

ـ أوه، إدوارد، أرجوك، لا ترفع صوتك، على كل حال لا أريد مناقشة هذا الموضوع، الآن، حدثني أنت عن ذلك الرجل الشامي الذي ذكرته، يبدو أن الحديث سيذهب بنا مذاهب شتى.

ـ بل حدثيني أنت عن القرش؟

ـ ما يزال القرش لغزاً، فهو من الأسماك، ولكنه يختلف عنها.

ـ وكيف؟.

ـ سأحدثك، بل سأقرأ عليك.

وتمد يدها إلى حقيبتها، وتخرج كتاباً، تقلب صفحاته، وهي تتكلم:

ـ اشتريت هذا الكتاب من الفندق، مئات النسخ بيعت منه فور وقوع الحادث المشؤوم، قرأت فيه يوم أمس، وأكملته اليوم وأنا في الطائرة، القرش، إدوارد، من الكائنات التي خلقت قبل ثلاثمئة مليون سنة، وربما أربعمئة مليون، ظهرت على وجه الأرض قبل ظهور الديناصورات، وأقدم نوع منها ما تزال سلالته تعيش إلى اليوم يرجع عمره إلى مئة وخمسين مليون سنة، فهي تعطينا فكرة كافية عن طبيعة الحياة الأولية، والقرش من الأسماك، ولكنه لا يملك مثلها هيكلاً عظمياً، إنما له هيكل غضروفي، يتكون من أملاح الكالسيوم الصلبة، وهو من الأسماك أيضاً، ولكنه لا يملك مثلها الأكياس

الهوائية التي تساعد على التنفس والسباحة والعوم، وإنما يملك صفين من الخياشيم على جانبي الرأس، في كل صف أربعة أزواج من الخياشيم، ولذلك يعتمد القرش على تمرير كميات كبيرة من الماء عبر الخياشيم للتنفس، والقرش لا ينام ولا يتوقف عن الحركة من الولادة إلى الموت، وهو يتحرك بسرعة، وله أنواع كثيرة من الأسنان المدببة القاطعة بمختلف المقاسات يبلغ طول بعضها سبعة عشر سنتيمتراً، وغيرها من الأسنان المسطحة القادرة على كسر القواقع، ويستطيع القرش بأسنانه الفولاذية بل الماسية قضم قطعة كبيرة من لحم أي حوت، وهذه الأسنان تنمو وتسقط في العام الواحد آلاف المرات، وهي بصلابة الماس، وأنواعه مختلفة جداً، منها ما يبلغ طوله عشرين سنتيمتراً فقط، ومنها ما يبلغ طوله ثمانية عشر متراً، والأنواع الخطيرة حقيقة لم أحفظ أسماءها، هناك نوع النمري، وهو يستطيع بأسنانه أن يحطم صدفة السلحفاة الصلبة، وهي الصدفة التي كان المحاربون الإغريق يتخذونها ترساً يصدون بها ضربات السيوف.

وتفتح الكتاب، وهي تقول:

ـ سأقرأ عليك من الكتاب حقائق علمية.

وتأخذ في القراءة بحماسة:

ـ يتألف القرش من أربعمئة نوع، ثلاثون نوعاً منها فقط هي من النوع المفترس، والخطير منها أربعة أنواع فقط، وهي القرش الأبيض " White Shark "، والقرش الثور Bull Shark، والقرش النمر Tiger Shark، والقرش المحيطي OceanicShark، وغالباً ما يهاجم القرش الكائنات الضخمة المشبعة بالدهون مثل الفقمة وسباع البحر والحيتان، وهو يهاجم بشكل قطيع، قد يبلغ عدده 400، ولذلك لا يهاجم القرش الإنسان لأنه لا يشبع نهمه، والقرش على العموم ليس عدواً للإنسان، ونادراً ما يهاجمه، إلا إذا استثاره، أو كان قريباً جداً منه، أو كان القرش جائعاً جداً، ويسجل في العام بين خمسين وسبعين هجوماً فقط، ومن خمس هجمات إلى عشر هي المميتة

فقط، ونادراً ما يهاجم الإنسان، وأكثر من هاجمهم كانوا من الرجال، ونادراً ما يهاجم النساء.

وأسألها:

ـ وكيف هاجم إذن السائحة الألمانية؟.

ـ في الحقيقة لا أعرف بالضبط، ربما اقتربت منه أكثر من اللازم، أو ربما كان جائعاً، أو ربما هناك أسباب بيئية لا أعرفها، وعلى العموم مياه شرم الشيخ آمنة، ولا يظهر فيها القرش إلا نادراً، ودعني أكمل لك هذه المعلومات.

وتعود إلى القراءة:

ـ يمتلك القرش ميزات مجتمعة تساعده على تحسّس البيئة المحيطة وكشفها بدقة متناهية، فهو مثلا يمتلك مقدرة هائلة على الرؤية في الأعماق بفضل وجود طبقة عاكسة تقوم بتضخيم كمية الضوء الساقط على الشبكية، وهو ما يجعله قادراً على تحسس أضعف الأضواء، بالإضافة إلى أن جلده يحتوي حجيرات تشبه الأقماع، وهي مليئة بالنهايات العصبية الفائقة الحساسية القادرة على الاستجابة لأبسط رنين يحمله الماء لها، إلى جانب حاسة شم قوية تمكّنه من الإحساس برائحة قطرة واحدة من الدم في مئة ألف لتر من الماء، كما تمكنه هذه الحاسة من متابعة أثر الروائح لمسافة عدة كيلومترات، لذلك أكثر ما يستجيب إلى الدم، ومقدمة الأنف مزودة بنوع من المسامات الصوتية تمكنه من الاستدلال على أي حقل كهربائي مهما كان ضئيلا، بمعنى أنه قادر على رصد أي حركة عضلية مهما بلغت من الضعف. هذه هي الأسلحة التي يتزوَّد بها هذا الوحش الفريد تعطيه القدرة على السباحة لمسافات تصل إلى مئة كيلومتر يومياً ولأعماق تمتد إلى 2000 متر، هذا هو القرش الذي زرع الرعب في شواطئ كاليفورنيا وأستراليا والذي سماه الناس "أسنان البحر" لكن الحقائق العلمية تكذب نسيج الأساطير التي حاكها الناس عنه، وكل تلك المبالغات الهوليودية، فهو لا يستمرئ لحم الإنسان ولا يستسيغه أبدا، غير أنه يهاجمه غالبا بدافع الخوف والدفاع عن النفس، ولقد تحول صيده إلى تجارة

رابحة مما بات يتهدد وجود أنواعه في بيئته الطبيعية، فقد تم اصطياد 800 ألف طن خلال فترة التسعينات من القرن العشرين، كل شيء في جسده في الحقيقة يدعو لاصطياده، فلحمه لذيذ ومقوٍّ لصمامات القلب، أما زعانفه فقد باتت جزءاً من نشاط شبكات السوق السوداء التي تجد رواجاً في الصين وتايلاند وكوريا وسنغافورة وغيرها من البلدان الآسيوية، وفي المطاعم الفاخرة في هذه الدول يصل سعر طبق حساء زعانف القرش إلى 150 يورو، ويقال إن له بعض الفوائد الصحية التي تماثل عقاقير الفياغرا المقوية جنسيا، ويقول علماء الأحياء المائية والبحرية.

وتتوقف عن القراءة، لتسألني:

ـ هل أتابع؟

ـ لا، شكراً، حدثيني عن الشعاب المرجانية في شرم الشيخ.

ـ آه، هذه حديثها يطول، وقد دونت ملاحظات كثيرة، والتقطت صوراً أكثر، وعندما نصل إلى أكستر سأنجز بحثاً كاملاً عن الموضوع، سوف تقرؤه من غير شك، الآن عندي لك خبر سار.

ـ وما هو؟.

ـ ابنتنا ماري حامل.

ـ آه، خبر سار حقيقة، وكيف عرفت؟.

ـ كنت كل يوم أكلّمها مساء.

ـ أرجو أن يكون حملها بولد ذكر.

ـ منذ قليل عِبْتِ عليّ الاعتقاد بالعين الحاسدة، وأنا الآن أعيب عليك تعلقك بالذكر.

ـ هذا هو اللاشعور الإنساني في المجتمعات كلها، لا يمكن أن ننكره، ولا تنسَيْ أنه ليس لدينا ولد ذكر، بل ليس لدينا سوى ماري، يسرني حقيقة أن يكون حملها بذكر، لا يمكن أن أنكر ذلك، ولا تنسي أن كثيراً من البحوث

والتجارب تجرى منذ القديم من أجل التحكم في جنس المولود، المجتمعات كلها تريد أن يكون المولود ذكراً، حتى المرأة نفسها، تتمنى أن تحمل بذكر.

ـ هذا بتأثير منكم أنتم أيها الرجال، تخيل عالماً من غير نساء؟.

ـ لا يمكن أن أتخيل ذلك، وإلا فقدت عملي، عملي كله في قناة فالوب.

الآن عرفت سر الحلم، البنت التي كنت أقبلها بالحلم هي حفيدتي إذن، ولكن لماذا غضبت جدتي؟ هل أحدث فيث عن الحلم؟ هي تؤمن بالعين الحاسدة ولا تؤمن بالحلم؟ هذا من تناقضاتها العجيبة.

ـ لا بأس إذن، حدثني الآن عن صديقك الشامي الذي تعرفت إليه.

ـ عرفني على نفسه، أخبرته أنني والفريق في فندق غراند حياة، ودعوته إلى زيارتي، وإذا به في اليوم الثاني يتصل هو بي ويدعوني إلى زيارته، في شقة مستأجرة في مكرم عبيد، على كل حال سأحدثك عنه، بالتفصيل، فيما بعد، حدثيني أنت عن حياتك في شرم الشيخ؟.

ـ حياتي؟ هي أيام أربعة، أو خمسة فقط، قطعت إجازتي لأجلك، وجئت، لأعود معك إلى أكستر.

ـ لأجلي أنا قطعت إجازتك؟ أم خوفاً من القرش؟.

ـ صدقني لأجلك أنت، وليس خوفاً من القرش، القرش ظهر مرة واختفى، ولن يظهر ألف مرة، وأنا لا أخافه، تعرفني، أنا مختصّة بعالم البحار، وبالشعب المرجانية، وأعرف كثيراً عن القرش وطباعه، قبل أن أقرأ هذا الكتاب، صدقني، حتى لو لم يظهر القرش، كنت على وشك المجيء إليك في القاهرة، لمشاركك في رؤية الصحراء والعيش يوماً أو يومين تحت الشمس، فقد أصبح جسمي مثل ورقة بللها الماء إلى حد الإشباع، أنا بحاجة إلى قليل من الدفء.

ـ وأنا تقشر جلدي من الحر، أصبحت بحاجة إلى قليل من الماء، مثل جذر شجرة تيبس في الحر.

ـ هذه فكرتي أنا، أنت سرقتها مني.

ـ بل صدقيني، هذه فكرتي أنا، كنت أحدث بها نفسي قبل قليل.
ـ إذن حدثني عن مغامراتك في القاهرة؟
ـ لماذا تسألينني هذا السؤال؟ وأنا ما سألتك سؤالاً مثله؟
ـ أنا مؤمنة، أذهب كل أحد إلى الكنيسة، وأوقد الشموع، وأقدم الصلوات، وأنت لا تكاد تزور الكنيسة.
ـ كونك مؤمنة لا يمنع من أن أسألك.
ـ أرجوك أجبني، من حق المرأة أن تسأل، كي تطمئن إلى حب زوجها لها ووفائه.
ـ والرجل؟
ـ ليس من حقه أن يسأل، لأن سؤال الرجل للمرأة دليل على الشك، وهو يثير القلق ويدمر الحياة، أما سؤال المرأة لزوجها فهو دليل على الحب والغيرة والخوف عليه، وهو يؤكد الحب ويبعث على الثقة والاطمئنان، هل تريد ألا أسألك؟.
ـ بل اسألي، ولكن صدقيني، ليس معنا في الفوج سوى ثلاث عجائز تعرفينهن جيداً، مارجريت، وديانا، وكريستين، وكنّ دائماً ينادينني كنج إدوارد، تعبيراً عن احترامهن لي، وغالباً ما كنت أتذمر من تعليقاتهن ونصائحهن.
ـ أنت حقيقة كنج.
ـ شكراً، فيث.
ـ ونساء مصر؟.
ـ لو التقيت بكليوبترة ونفرتيتي لما فكرت في أي أمراة سواك أنت.
ـ حتى لو التقيت بهيلين أو بياتريتشا أو جولييت؟.
ـ جولييت؟ ربما، قد أفكر فيها قليلاً، ولكن في النهاية لا أفكر في امرأة سواك، مثل أوديسيوس، أنت الكل في الكل، إذا كنت لا أريد تذوق قهوة أخرى، غير القهوة التي قدمها لي ذلك الشامي، لأني أخشى ألا تكون مثلها،

ولكي أظل وفياً لها، إذا كان هذا وفائي لقهوة ذقتها عرضاً، فكيف هو وفائي لك، فيث، لا يمكن أن أفكر في امرأة أخرى غيرك.

أنهض، وأنا أقول:

ـ اسمحي لي بدقيقة واحدة فقط.

أمضي إلى مدير المقصف، أطلب منه أغنية، وأعود.

ـ أرجو أن تستمعي الآن إلى هذا اللحن والصوت والأداء.

وينداح في فضاء المقصف نغم واسع الامتداد كأنه الصباح المشرق تنساب أنواره عبر غمامات رقيقة شفافة فتكتسي بألون الفضة والذهب، وف يثناياه ينهمر صوت مثل الندى يرش على الكون عطره وشذاه، في رقة ولطف وانسياب مثل غلالات من رذاذ رقيقة شفافة تنسدل من سحابات بيض إلى إلى أرض عطشى.

ـ هل أعجبك اللحن والأداء والصوت؟

ـ جداً، وإن كنت لم أفهم معاني الكلمات، ولكن أظنها تغنّي للحب والحياة.

ـ أهديك الكلمات والنغم والصوت والأداء.

ـ وماذا تقول الكلمات؟.

ـ لم أحفظها جيداً، استمعت إليها في سيارة الأجرة وأنا مع السائق عوض، ترجم لي كلماتها، هنا معظم الناس يعرفون الإنكليزية، بمستويات مختلفة، من السائق إلى نادل المطعم، إليك بعض كلماتها:

يا نعيش مع بعض، حبيبي، يا نموت احنا الاتنين

اوعدني نكون، يا حبيبي، مع بعضنا في الحالتين

ـ وما اسم المغنية؟.

ـ اسمها أليسا.

ـ هي غير أم كلثوم التي كنا نستمع إليها معاً قبل مجيئنا إلى القاهرة، كي نعتاد على إيقاع اللغة العربية وأصواتها.

ـ طبعاً، هي غيرها، هذه من جيل جديد.

وها أنت ذي أمامي، وصورتك تنعكس على زجاج الواجهة عن يميني، وصورتك تنعكس على زجاج المائدة قدامي، واسمك على الحقيبة عن شمالي، لا أرى سواك، عن يميني وعن شمالي وأمامي وقدامي، بل أنت في مسامي، وفي مجرى الدم من عروقي، أنت الكل في الكل.

أحياناً، وسامحيني، فيث، أفكر في التعرف إلى امرأة أخرى، مجرد تعرف لا أكثر، وتكوين صداقة، لا علاقة جسدية، ولا علاقة حب، فأجد نفسي قلقاً، غير مطمئن، لا أشعر بالارتياح، وسرعان ما أقلع عن الفكرة، معك أنت وحدك أشعر بالارتياح، لا أريد أن أقلق روحي، أنا معك مثل المؤمنين الموحّدين، أرتاح إلى التوحيد، لست وثنياً، ولا أريد أن أكون.

لا يمكن أن أصارحك، مرة كنت في المصعد، وتوقف عند الدور الخامس، دخلت إحدى الممرضات، أعرفها جيداً، طالما عملت معي، في غرفة العمليات، أو زرنا معاً إحدى المريضات، عادية، بل ليست جميلة، ولكن فجأة رأيتها مختلفة، ربما مثيرة، كنا وحدنا في المصعد، فكرت في دعوتها إلى فنجان قهوة في مقصف المستشفى، أو إلى عشاء في مطعم، هي فكرة زمجرت في داخلي مثل رعد، ولكن سرعان ماغاب الصوت وتلاشى.

الرجل يفكر دائماً أنه بحاجة إلى أكثر من امرأة، يبدو هذا طبيعياً، لا أعرف من أين تولد هذه الفكرة في أعماق كل رجل، ربما هي ميراث عهود بدائية موغلة في القدم، وقد يضعف في لحظة ما، ولكن عليه أن يبدد هذه الفكرة، وعيه الحضاري يوقف التنفيذ فوراً، أو قد يمنعه شعوره الديني، أو حبه الشديد لزوجته، مثلي أنا، هناك الأم والأخت والبنت، والعمة والخالة والجدة، هن اللواتي يمكن أن يشبعن هذا الميل الطبيعي إلى المرأة.

وجود المرأة حاجة عضوية، لها تجليات عدة من الحب والعاطفة والمودة والاحترام، وربما الشفقة والعطف، والشعور بارتباط ما، المرأة صانعة الحياة، بل هي الحياة.

لا أنكر، أنا أرتاح إلى وجود الممرضة المتدربة إلى جواري في غرفة العمليات أكثر مما أرتاح إلى وجود طبيب أكثر خبرة منها، المرأة هي الحياة، وجود الممرضات حول سرير المريض يعطيه شعوراً خاصاً بالعطف واللطف والحنان، يثير فيه قوة الحياة.

لا أنسى العجوز التي رأيتها من نافذة مطعم فرحات، وشرطي المرور يساعدها على عبور الشارع، في الواقع شعرت بشيء من النفور من العجائز الثلاث، أو الملل، أو التذمر، أو ما لا أعرف كيف أسميه، هو شيء من المزاح أو الدعابة، أو تعبير عن ميل داخلي، في شكل رفض خارجي، مثل الطفل الصغير يشد شعر طفلة صغيرة في عمرها، يضربها، هو لا يريد إيذاءها، في داخله ميل نحوها، ولكن لا يعرف كيف يعبر عنه، العجائز الثلاث كن يذكرنني بجدتي دائماً، وكنت أحياناً أنفر منها، ولكنه شعور مؤقت وعابر.

ترى هل تفكر المرأة في الرجل كما يفكر هو فيها؟ هل تفكر المرأة في أكثر من رجل واحد؟ لا أظن ذلك، إلا في حالات استثنائية، أو في ظروف معينة قاهرة أو ضاغطة أو مغرية بشكل استثنائي، المرأة أكثر وفاء للرجل، لأن همها ليس الرجل بحد ذاته، إنما همها في دوره في حفظ الحياة، دوره في منحها الخصب، ولذلك يكفيها رجل واحد، ولذلك لا تهمها وسامته، وكثيراً ما ترى امرأة جميلة تتأبط ذراع رجل دميم، أو غير وسيم على الأقل، في حين لا يكفي الرجل امرأة واحدة، على كل حال هذا هو تفكيري أنا الرجل، هو تفكير ذكوري، هل أسأل فيث؟ أوه، لا يمكن أن تصدقني القول، لا يمكن أن تقول الحقيقة، أوه، مرة أخرى أعود إلى تفكيري الذكوري، ليتني أعرف وجهة نظر المرأة؟!.

ـ إدوارد، أنت صامت، بماذا تفكر؟ ماذا هناك وراء الزجاج؟

ـــ لا شيء فيث، أنا أرى صورتك المنعكسة على الزجاج، وأرى المسافرين وهم يصعدون على الدرج وهم يجرون حقائبهم، ولكن الصورة المنعكسة عن الداخل هي الأقوى، حدثيني عن الأسماك والشعب المرجانية.

ـ هذا عالم آخر، من الصعب الحديث عنه، ومهما تحدثت فالحديث غير كاف، لا بد من أن تغوص بنفسك لترى وتستمتع، وفي الحقيقة أربعة أيام أو خمسة غير كافية، وأنا ما أمضيتها كلها في البحر، من المؤسف أن العمر يضيع ولا نكاد نحقق إلا القليل مما كنا نود تحقيقه.

صدقت فيث، وفي النهاية لا بد من الرحيل، كما نرحل الآن من القاهرة، سنرحل من العالم كله ومن هذه الحياة إلى حياة أخرى، وقد يكون الرحيل فجأة من غير توقع، تظن أنك جئت في إجازة لمدة خمسة عشر يوماً، وإذا هي تختصر إلى أربعة أيام أو خمسة، إذ يأتيك طلب بالرحيل، ولا يمكن إلا أن تستجيب.

ـ وكذلك أنا يافيث، لم أر إلا القليل مما كنت أتمنى أن أراه في القاهرة، صدقيني لو أمضيت أربع سنوات فيها لما استطعت أن أعرفها كلها، هذه هي الدنيا، العمر قليل، والوقت قصير، ولا يمكن معرفة كل شيء.

ويأتي النادل بالكبتشينو والقهوة الفرنسية، أتأمل حقيبة فيث المملوءة.

ـ فيث بماذا ملأت الحقيبة؟ لماذا هذا العناء كله؟ أظن وزنها فوق الثلاثين؟.

ـ لا، صدقني، هي دون العشرين، تم وزنها قبل ساعتين، لا شيء فيها سوى حاجاتي الخاصة، وبعض الهدايا، انظر إلى الركاب من حولنا، بعضهم يدفع عربة فوقها ثلاث حقائب أو أربع.

ـ أنا لا أود حمل غير هذه الحقيبة، خفيفة، صغيرة، رشيقة، وكم أتمنى لو أسافر من غيرها.

في النهاية لا بد أن نرحل من غير أن نحمل أي شيء.

يأتي النادل بقطعتي كاتو.

ـ فيث، هل تعرفين بماذا أفكر؟.

ـ لا.

ـ أفكر أن نمضي إجازتنا العام القادم في القدس ورام الله وبيت لحم، لنزور كنيسة القيامة ونؤدي الصلاة هناك، هذا لأجلك فيث.

ـ فكرة رائعة، كيف خطرت على بالك؟.

ـ زرت مع الفوج السياحي جامع محمد علي باشا، هو تحفة عمرانية، يشبه تماماً جامع آيا صوفيا، وقد زرناه أنا وأنت العام الماضي في إسطنبول، وإن كان أصغر منه، لن أحدثك عن العمارة فيه، إنما سأحدثك عن مشهد لا أنساه، ليس عن رجل يصلي، يركع على ركبتيه، أو يسجد فيضع جبينه على الأرض، فهذا مشهد معروف، ولكن أحدثك عن رجل في السبعين يرفع يديه إلى السماء، بخضوع، وخشوع، ويتوسّل، ويذرف الدموع، فتسيل على لحيته البيضاء، وأطلب من الدليل أن يسأله أن يدعو الله لنا، فيدعو الله أن يعم السلام العالم كله.

ـ ما هذا التغير إدوارد، أنت علماني، ولا تزور الكنيسة، إلا نادراً، وربما لا تزورها إلا لأجلي، وعن غير قناعة.

ـ فيث، أنا علماني، نعم، ولكن أنا لست بملحد، أنا أقر بوجود إله، ولكن لا أحب الالتزام بأي دين، أو طقس، وأشعر بالراحة والأمان لأن زوجتي مؤمنة.

ـ هذا لايكفي يا إدوارد، ولكن على كل حال، قبل القدس، سنزور مكاناً آخر، أو بعدها، هل يمكن أن تتوقع ما هو؟.

ـ سورية، لنزور الصديق الشامي المقيم في حلب.

ـ لا بأس، يمكن أن نزور سورية لأجله، ولكن هناك مكان آخر أفكر في زيارته قبل زيارة القدس أو بعدها.

ـ وما هو؟

ـ غزة.

ـ أوه، غير متوقع، ولماذا غزة بالذات؟.

ـ في الفندق، كان يخدم الغرفة شاب مصري نشيط، وعلى خلق عال، ولكن في اليوم الرابع، ليلة أمس، كان مرهقاً جداً، وكانت يده ملفوفة بشاش

أبيض، ومع ذلك جاء ليخدم الغرفة، أشفقت عليه، سألته، طلب مني ألا أبوح، أخبرني أنه يتعاون مع الفلسطينيين، وهو المصري، يساعدهم على تهريب بعض الأدوية والأطعمة عبر الأنفاق، حدثني كثيراً عن غزة وشعبها الصامد، وأنا أغادر حمل حقيبتي إلى السيارة، وقبل أن تنطلق بي، أعطاني مخزن ملفات، هذا هو.

وتفتح حقيبة يدها الصغيرة، تخرج منها، مخزن ملفات، وهي تقول:

ـ طلب مني أن أنسخ ملفاته وأرسلها بالبريد الرقمي إلى كل أصدقائي في إنكلترة، في الطائرة وضعته في حاسوبي المحمول، شاهدت معظم الملفات، صور ومشاهد مؤلمة جداً، طفلة في السابعة من عمرها تمضي مع أبيها وإخوتها يوماً جميلاً على شاطئ البحر، فتقصفها الطائرة بصاروخ، ويموت أهلها أمامها، وتتناثر أشلاؤهم فوق الرمل، وتبقى وحدها، ورأيت صور أطفال دون الخامسة عشرة بل دون العاشرة يتصدون للدبابات والمصفحات بصدورهم العارية وليس معهم سوى الحجارة، بل رأيت طفلاً يتعلق بدبابة وآخر يواجهها بصدره وليس بينه وبينها سوى بضعة أمتار، هم يريدون أن يقولوا نحن هنا الشعب الفلسطيني صاحب الحق والأرض، رأيت بطولة شعب يحب الحرية، فيناضل لأجلها بشرف، ويموت لأجلها بعزة، ويرفض الهوان، وتأكد لي أنه شعب صاحب حق في أن يحرر أرضه ويبني دولته، وأن كل فرد فيه مستعد للموت من أجل هذا الحق، أثارت المشاهد في نفسي الرغبة في زيارة غزة، وأكثر ما لفت نظري أحرار من العالم يأتون إلى غزة ليقفوا إلى جانب شعب مظلوم، ومن المؤسف، إسرائيل تحاصرهم وتمنع عنهم الحياة، مليون ونصف المليون في سجن كبير، ما رأيك في زيارة غزة العام القادم قبل زيارة القدس أو بعدها؟.

ـ لست متحمساً، أفكر أكثر في زيارة الصديق الشامي.

ـ وعدت أن تحدثني عن الصديق الشامي، حدثني الآن عنه.

ـ قبل أن أحدثك عنه أود أن أخبرك عن السبب المباشر لدعوتي للعودة فوراً إلى أكستر.

ـ ماهو؟ هل عينت رئيساً لقسم الأمراض النسائية؟.

ـ أوه فيث، أرجوك، لا تجعليني أغضب، تعرفين أني لا أحب الأعمال الإدارية.

ـ ولكنك تستحق أن تكون مدير المستشفى، لا رئيس قسم.

ـ أنت حقيقة تريدين إثارة غضبي، عشنا معاً ثلاثين عاماً، ولا تعرفين حتى الآن نفسيتي، أنا حقيقة لا أرغب في الأعمال الإدارية.

ـ ولكن أنا أحب أن أراك مديراً.

ـ أوه، هذه هي المرأة، تبهرها دائماً الألقاب، تحب المناصب، لا تقدر الزوج لأنه زوج وكفى.

ـ انس الموضوع، أخبرني عن سبب دعوتك للعودة فوراً، هل هناك ما هو خطير؟

ـ الطبيب الأول المساعد لي، والذي كلف بالنيابة عني، أدخل المستشفى، بسبب إصابته بإنفلونزة حادة، ولا يمكن أن يدخل إلى غرفة العمليات حتى لو شُفِيَ منها خلال ثلاثة أيام، ويخشى أن تكون إنفلونزة الخنازير، عملنا في المستشفى يمكن أن يعرضنا لأي نوع كان من الإصابات، على الرغم من أخذنا اللقاحات المطلوبة، لذلك، عودتي لا بد منها.

ـ يمكنك إذن أن تطلب تعويضاً مالياً عن قطعك إجازتك السنوية، ولا بد أن تكون عودتك بالطائرة على نفقة المستشفى.

ـ أوه فيث، ماهذا، أنت تهينينني.

ـ لا، إدوارد، هذا حقك.

ـ لا، ليس حقي، ما هذا التفكير يا فيث؟!

دمي يشتعل، أنهض غاضباً، يكاد فنجان القهوة ينقلب، وأنا أشير إليها بيدي، الدم يقفز إلى وجهي، أصيح:

ـ ابقي أنت هنا، عودي إلى شرم الشيخ.

ــ سامحني إدوارد، ما قصدت الإساءة إليك، أرجوك اقعد، لا تلفت الأنظار إلينا.

أقعد مضطراً، وكأنني أهوي في بئر.

ـ ما كنت أعرفك مادية إلى هذا الحد، هذا هو طبع المرأة أيضاً، للأسف، لا تفكر إلا في المال.

ـ إدوارد، أنت مثالي أكثر مما هو ضروري.

ـ وهل المثال تهمة؟ لولا المثال لما تطور الواقع، هل تريدين أن أنهض ثانية، وأتركك لأعود إلى القاهرة؟!.

ــ سامحني إدوارد، كنت أمازحك، انس الموضوع كله، حدثني عن صديقك الشامي.

أصمت، أحس بالضيق، يتوقف الدم عن الجريان في شراييني، أحس باختناق، مشكلتي أنني أصارحها بكل شيء، أريد أن تشاركني حياتي بكل تفاصيلها، وهي تأبى إلا أن تثير غضبي، حتى في السفر تثير غضبي، كلمة واحدة تلقيها هكذا جزافاً، تظنها عادية جداً، ولكنها صخرة تهوي في بحيرة، ما الحل؟ أتمنى أن أرجع إلى القاهرة، إلى غراند حياة، إلى العجائز الثلاث، جدتي قالت لي هي ابنة ليفربول، وأنت ابن أكستر، لا يمكن أن تتفقا، مزاجها مائي، ومزاجك ترابي، أنت ابن راع، وهي ابنة صياد، هذا صحيح، ولكن ما أحوج التراب إلى الماء، وما أحوج الماء إلى التراب، لا بد أن يختلط بعضنا ببعض، لنصنع المزيج، لنصنع الفخار الذي منه خلقنا، في باريس التقينا وتعارفنا واتفقنا على الزواج، هل جئنا هنا إلى مصر لنختلف ونفترق؟ جمعتنا الأسفار، فهل تفرقنا الأسفار؟ لا، أعشقها، حتى في الغضب أحبها، أعشق عينيها، والابتسامة، لا حل، سوى أن تعفو وتصفح، انس، لا بد أن تنسى فوراً، ولكن هل يستطيع العازف الانتقال على الغيتار فوراً من إيقاع راقص

صاخب إلى نغم هادئ حزين؟ وبعد ذلك كله لماذا أغضب من وصفها لي بالمثالي؟ أنا في الحقيقة مخطئ، يجب أن أحاورها بهدوء.

ـ اسمعي فيث، لنتكلم بهدوء، لنفترض أنه من حقي أن أطلب ثمن تذكرة الطائرة للعودة.

ـ بل يحق لك أيضاً أن تطلب التعويض عن قطع إجازتك.

ـ لا بأس، لن أنفعل، سأقبل منك هذا، ولنفترض أني طلبت مثل هذا التعويض، كم سيصبح رصيدي في البنك، بل قولي كم سيزيد؟ أنت تعرفين أنني لست متعلقاً بالمال، وأنت تعرفين رصيدي في البنك، يكفينا لنعيش معاً حتى من غير عمل خمس سنوات، لماذا هذا التعلق الشديد بالمال؟ في النهاية سوف نرحل من هذا العالم كله، لا من القاهرة وحدها، بل من العالم، وإذا كنا نستطيع أن نحمل معنا حقيبة أو حقيبتين أو ثلاث حقائب ونحن نغادر القاهرة، فإننا لن نحمل معنا أي شيء ونحن نغادر هذا العالم.

ـ أوه إدوارد، ولكنهم على الأقل صادروا حريتك، واضطروك إلى قطع الإجازة.

ـ لا يا فيث، أولاً لم يصادروا حريتي، أنا كان بإمكاني أن أعتذر، وألا أقطع الإجازة وأبقى في مصر، ولكن حبي لعملي ولبلدي هو الذي دفعني إلى قطع الإجازة، أنا أود أن أسألك: من اضطرك أنت إلى قطع إجازتك مثلي؟ أهو القرش؟

ـ لا، بل حبي لك.

ـ شكراً، أحسنت، وثانياً نحن في هذا العالم في هذا الكون لا نملك الحرية المطلقة، نحن جزء من هذا الكون، وأي حدث يقع في العالم نتأثر به شئنا أم أبينا، تعرفين المثل: إذا رفت فراشة في بنغلاديش ثارت عاصفة في إنكلترة، فكيف لا أعود إلى إنكلترة وقد أصيب مساعدي الأول بإنفلونزة ولزم المستشفى؟ وموافقتي على العودة هي بحد ذاتها حرية، كان يمكن أن أعتذر كما قلت لك.

ـ أوه، إدوارد، أنت تأخذ الأمور بجدية أكثر مما يجب، ودائماً تفسر المواقف وتعللها، أنت تعي ذاتك أكثر مما يجب.

ـ هذا من حقي، وهو دليل وعي، ومن واجب المرء أن يتصرف بوعي، ويدرك حقيقة مواقفه، وما نحن إلا ممثلون على خشبة هذا العالم الكبير، وكل من يقوم بدور، وعليه أن يعي دوره، وأن يتقن أداءه.

بل ما نحن، كما قال لي جبريل، في ميدان الحسين، إلا شخصيات افتراضية.

ـ ولكن هذا متعب يا إدوارد.

ـ الحياة كلها تعب.

ويعلو نداء عبر مكبر الصوت، يدعو ركاب طائرة الخطوط الجوية البريطانية التوجه إلى البوابة رقم 7.

ـ أوه، إدوارد، كيف مرت الساعة ونصف الساعة هكذا بسرعة؟

ـ حبيبتي، لأننا معاً.

ـ وما كنت أعرفك ثرثاراً بهذا القدر.

ـ وأنت أيضا تكلمت اليوم كثيراً.

ـ هيا إذن، لننهض لنستلم بطاقة الصعود إلى الطائرة.

ـ فيث، ما رأيك بالبقاء هنا في القاهرة.

ـ وعملك في أكستر؟

ـ أقدم طلب الاستقالة.

ـ وكيف سنعيش؟

ـ رصيدنا في البنك يكفينا بقية العمر، الحياة هنا رخيصة جداً، ويمكن أن أجد فرصة عمل، صدقيني أنا مستعد للعمل هنا بالمجان، الشعب طيب جداً، ويستحق المساعدة.

ـ دعك من هذه الأحلام الرومنسية، وهيا لننهض.

ـ هذا هو النداء الأول، انتظري، ما يزال عندنا مزيد من الوقت للتفكير، ما رأيك في فنجان آخر من الكبتشينو.

ـ دعنا من هذا، إدوارد، لا بد أن نعود إلى أكستر، هيا لننهض، ونتوجه إلى البوابة، ولكن انتظر، قبل أن نذهب إلى البوابة، أنا أحضرت لك هدية خاصة.

وتفتح حقيبتها، تستخرج صندوقاً، وتسأل:

ـ احزر مافيه؟

أتردد، ثم أقول:

ـ لولا أن القرش قد افترس تلك السائحة الألمانية المسكينة، لقلت هي سمكة قرش صغيرة من زجاج ملون، ولكن لا أتوقع ذلك، أظنها سفينة من قواقع البحر وأصدافه؟

وتفتح الصندوق وتناولني إياها.

يا إلهي، سمكة المارلين، السمكة التي ناضل من أجلها سانت دياغو، الرمح في مقدمتها يتجه إلى ما لانهاية، يقول ها أنذا، يتحدى المجهول، يرسم خطاً غير منته، مثل نظرة أبي الهول، مثل عنق الجمل العربي، هي مثله، عزيزة ذات كبرياء، وكم هي جميلة، بل هي عظيمة، جسمها ينزلق بقوة، ولكن برشاقة، كيف جمعت هذه العظمة إلى هذا الجمال، صغيرة في حجمها، وهي تمثال صغير، ولكن توحي بطولها وعظمتها، وإذا هي كبيرة، على الرغم من أنها صغيرة بين يدي، هي كالجمل، كبيرة كبيرة، هي كأبي الهول، عظيمة عظيمة، أظنها من غير شك قادرة على الصمود حتى في الصحراء، حق لسانت دياغو أن يناضل لأجلها، أن يمخر عباب البحر ويبقى في عرضه وحيداً لأجلها، كم كنت أتمنى أن أبقى وحدي في المتحف وفي الصحراء ومع أبي الهول، حق أيضاً لسانت دياغو أن يقتحم البحر وحده، وحق لأبي الهول أن يشمخ في الأفق وحده، وأن ينهض الجمل العربي وحده.

ـ شكراً فيث، هدية رائعة، أعدك أن أعيد قراءة الشيخ والبحر، قرأتها من قبل مرتين، بل عديني أن تقرئي عليّ أنت بنفسك مقاطع منها ونحن في الطائرة، صدقيني كنت دائماً أتمنى أن أكون دائماً في الصحراء ومع أبي الهول وفي المتحف وحدي، مثل سانت دياغو، هذا لأنك لم تكوني معي.

ـ أنا حققت أمنيتك، فقد كنت دائماً في أعماق البحر قرب الشعاب المرجانية وحدي، لأجلك، بل كنت معي، لأنني كنت أفكر فيك، كم كنت قلقة عليك من شمس مصر، والآن أين هديتي أنا؟.

أقف، أحار في أمري، أتردد، أفتح حقيبتي، أقدم لها الجعل.

ـ هذه هي، جعل، أو جعران، هي لك، أهديها لك، هي سر الحياة.

وأحدثها عن الجعل، كما حدثني عوض، ثم أقول لها:

ـ هي في الحقيقة هدية صديقي الشامي، حملها إليّ السائق عوض، وأنا أقدمها لك.

ـ أوه، هدية رائعة حقاً، هي مقبولة، ما دامت من يدك أنت، ولكن صدقني حتى الآن لم أعرف من هو صديقك الشامي؟.

ويعلو النداء بالتوجه إلى بهو الانتظار، استعداداً للصعود إلى الطائرة.

ـ شكراً لك، يجب أن أتصل به لأودعه.

أرفع الجوال، أتصل بعوض، أودّعه، أشكره على كرمه، أتصل بصديقي الشامي، أودعه، يفاجأ بسفري المبكر، أحدثه عن اضطراري لقطع إجازتي، فيقول لي:

ـ أرجو تزويدي بريدك الرقمي، لأرسل لك رواية جديدة لي عن القاهرة.

ـ هذا جميل جداً، أرسلها الآن فوراً، قبل الصعود إلى الطائرة، نحن الآن في بهو الانتظار، لأقرأها في أثناء الرحلة.

وأفتح الحاسوب المحمول، أتصل بالشبكة، استقبل رسالته، وفيها ملف روايته.

ونحن نتوجّه إلى الطائرة تسألني زوجتي:

ـ هذا هو صديقك الشامي؟
ـ نعم.
ـ وهل هو كاتب؟
ـ نعم.
ونحن في الطائرة، وزوجتي إلى جواري، أقول لها:
ـ حان الوقت لأحدثك عن صديقي الشامي، هو أديب وأستاذ جامعي من سورية، هو الآن في زيارة لمصر، وقد تناولت طعام الغداء في شقته بمكرم عبيد.
ـ وهو الذي سقاك القهوة التي أعجبت بها؟
ـ نعم، وقد امتلكني أو تلبسني حتى كأنني تقمصت شخصيته أو تقمص هو شخصيتي وأخذ يكتب عني، ويقول على لساني أفكاراً ومواقف ومشاعر.
ـ وهل تنكرها، أو ترفضها؟.
ـ لا، ولكن، لا أعرف بالضبط ماذا أقول.
ـ أوه، هذا رائع جداً، أنا أتمنى أن أكون بطلة في قصصه، ليته يكتب عني.

هذه هي المرأة، رومنسية، تحب الخيال، وواقعية، تحب المال والمناصب، تناقضات لا نهاية لها، ولا بد إذن من أن تكون عازفاً ماهراً، لتعزف على الأوتار كلها، وأن تنتقل بين الألحان بذكاء، وأن تكون طبيباً جراحاً تتعامل مع نفق فالوب بحذاقة، وإلا لما خرجت من نفق فالوب سليماً، هذه هي قناة فالوب، لا يمكن أن يعبرها ويصل إلى البويضة ليخترقها إلا الحيوان المنوي الأقوى، لذلك هي واقعية، تحب الناجح والقوي والمسيطر، ولذلك هي تستقبل، ولا بد أن تعرف كيف تتعامل معها، الآن عرفت سر قناة فالوب، لا بد أن تعطي أنت، أيها الرجل، ولك أنت أن تستقبلي، وأن تكوني واقعية، أعشقك أيتها الفاتنة، أعشقك أيتها المرأة، أنت الجدة والأم والأخت والزوجة والصديقة والعشيقة، أنت الكل في الكل، أحتاج إليك، أود لو أقبل

الآن شفتيك، وأعتصرهما، كوني لي، وخذيني كما تشائين، وسأكون لك كما تشائين، احتويني، لنكون معاً، إلى النهاية.

الآن عرفت سر تسمية الرحم بالعربية، كما درسناها في التطور التاريخي لمفهوم الحمل والولادة عند الشعوب وفي الحضارات والأديان، قال لنا أستاذ الأنثروبولوجيا يومها إن الكلمة تعني بالعربية الشفقة والعناية واللطف، وإنه لا بد أن تتعامل مع المرأة بهذه المعاني، وقال أيضاً إن الله عند المسلمين قد أوصى بها، واشتق لنفسه اسماً منها، بل اسمين وهما، كما لفظهما لنا بصعوبة: الرحمن الرحيم، وهو يلفظ الحاء هاء، كان عالماً بالحضارات واللغات وتطور الشعوب.

الآن عرفت سر قناة فالوب.

ـ لا شك في أنه سيكتب عنك، ولكنه سيكتب على لسانك أفكاراً ومعاني ومواقف، لا أعرف كيف أصفها؟ قد يصنعك على هواه.

ـ فليكتب كما يشاء، الكتابة حرية، ولكن لم تذكر لي حتى الآن اسمه؟

.هو كاتب هذه الرواية.

المحتوى

هنا في القاهرة لا يمكن أن تَمَلّ
حمام القاهرة المحشو بالأرز
البحث عن طريق العودة إلى غراند حياة
ساعة ونصف حول هرم خوفو وأبي الهول
شرفات على القاهرة ..نوافذ على الذات
ضياع في مطار القاهرة

الدكتور أحمد زياد محبك

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب
عضو اتحاد الكتاب العرب

عنوان المراسلة
البريد العادي : كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية
هاتف المنزل البريد الإلكتروني : mohabek@gmail.com
: 00963 21 2642132
الجوال : 00963944928792